ماذا يستفيد الناس من الإسلام؟



الإسلام: تشريع إلهي لمصلحة الإنسان

منافع الإسلام على:
الفرد
والأسرة
والمجتمع
والإنسانية
والحيوان و النبات
والبيئة

تأليف محمود الحنيني

ماذا يستفيد الناس من الإسلام؟

الإسلام ... تشريع إلـهي لمصلحة الإنسان

منافع الإسلام على الفرد والأسرة والمجتمع والإنسانية

تأليف محمود الحنيني

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الغني الحميد، الذي خلق الخلق بحكمته، وأرسل إليهم رسله رحمةً بهم، وأنزل عليهم كتبه هدايةً لهم، وأمرهم بما فيه صلاح دينهم ودنياهم، ونهاهم عما فيه فسادهم وشقاؤهم، أحمده سبحانه وأشكره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الغنى المطلق، والكمال المطلق، والحكمة البالغة، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، المبعوث رحمةً للعالمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،

فإن من أكثر الأسئلة التي تتردد في هذا العصر، على ألسنة المسلمين وغير المسلمين، سؤالٌ يبدو يسيرًا في لفظه، عظيمًا في آثاره، وهو:

ماذا يستفيد الإنسان من الإسلام؟

ويتفرع عنه أسئلة كثيرة، منها: لماذا يأمر الله الناس بالإيمان به وعبادته وهو غني عن العالمين؟ ولماذا شرع هذه الأوامر والنواهي؟ وهل تعود ثمرة الطاعة إلى الله سبحانه، أم إلى الإنسان نفسه؟ وما الذي يجنيه الفرد والأسرة والمجتمع والإنسانية من الالتزام بالإسلام؟

وهذه الأسئلة ليست جديدة؛ فقد دل القرآن الكريم على أصول جوابها في مواضع كثيرة، وقرر أن الله سبحانه هو الغني الحميد، وأن الناس جميعًا هم الفقراء إليه، وأن منافع الطاعة تعود على العبد نفسه، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:15]

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان:12]

وفي الحديث القدسي الذي رواه مسلم، يقول الله تعالى: **{.... يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا ....}**

وانطلاقًا من هذه الأصول، جاء هذا الكتاب ليبين أن الإسلام لم يشرعه الله سبحانه لحاجته إلى عباده، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وإنما شرعه رحمةً بهم، وهدايةً لهم، وتحقيقًا لمصالحهم، ودفعًا للمفاسد عنهم، في دنياهم وآخرتهم، علموا من تلك المصالح ما علموا، وخفي عليهم منها ما خفي.

ولا يقصد هذا الكتاب أن يجعل منافع الإسلام هي الدليل الوحيد على صدقه أو المعيار الذي تثبت به صحة أحكامه؛ فإن الإسلام حق لأنه وحي الله الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم، سواء أدرك الناس جميع حكمه أم خفي عليهم بعضها. وإنما المقصود بيان أن من تمام حكمة الله ورحمته أن جعل أوامره ونواهيه مشتملة على مصالح العباد، وأن ثمرة الامتثال تعود إليهم، **كما أن عاقبة المخالفة ترجع عليهم**، والله سبحانه غني عن العالمين.

ولهذا، فإن الكتاب لا يقتصر على بيان ما يستفيده المسلم في عباداته أو أخلاقه، بل يتناول آثار الإسلام في بناء الفرد، واستقرار الأسرة، وإصلاح المجتمع، وتحقيق الخير للإنسانية، كما يبين ما قرره الإسلام من الرحمة بالحيوان، والعناية بالبيئة، وعمارة الأرض، ليظهر للقارئ أن الشريعة الإسلامية جاءت رحمةً شاملة، تمتد آثارها إلى الإنسان وما يحيط به من المخلوقات.

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به كاتبه وقارئه، وأن يجعله سببًا في زيادة الإيمان، وتصحيح المفاهيم، وإظهار محاسن هذا الدين، وأن يرزق الجميع العلم النافع والعمل الصالح، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد

لماذا شرع الله الإسلام وهو غني عن العالمين؟

من أعظم الحقائق التي يقررها القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى هو الغني على الإطلاق، الكامل في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فلا يفتقر إلى أحد من خلقه، ولا يحتاج إلى شيء منهم، ولا تزيده طاعة المطيعين ملكًا، ولا تنقصه معصية العاصين سلطانًا. قال تعالى:

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:97]

وقال:

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ [الزمر:7]

وقال:

﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:6]

وكذلك كما مر في المقدمة قوله تعالى في الحديث القدسي الذي رواه مسلم: **{.... يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا ....}**

وفيه بيان كمال غناه سبحانه، وأن طاعة الخلق ومعصيتهم لا تزيد في ملكه ولا تنقص منه شيئًا.

وإذا كان الله سبحانه غنيًا عن عباده غنىً مطلقًا، فإن السؤال الذي يفرض نفسه هو:

لماذا أمرهم بالإيمان، وأنزل عليهم الشرائع، وأرسل إليهم الرسل؟

والجواب أن ذلك كله ليس لحاجة منه إليهم، وإنما رحمةً بهم، وإرادةً لخيرهم، وهدايةً لهم إلى ما يصلحهم في الدنيا والآخرة. فالإنسان هو المحتاج إلى ربه في وجوده، ورزقه، وهدايته، وتوفيقه، وهو محدود العلم والإدراك، لا يستطيع أن يحيط بجميع ما ينفعه ويضره، فاقتضت رحمة الله أن يبين له طريق الخير، ويحذره من طريق الشر، ويهديه إلى ما تزكو به نفسه، وتستقيم به حياته.

ولهذا قال سبحانه:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:185].

وقال:

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:6].

ولهذا كانت ثمرة الطاعة راجعة إلى صاحبها، كما أن عاقبة المعصية واقعة عليه، قال تعالى:

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ [الإسراء:7].

وقال:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت:46].

ومن هنا يتبين أن جميع ما جاء به الإسلام من عقائد، وعبادات، وأخلاق، ومعاملات، إنما شُرع لتحقيق مصالح الخلق، وحفظ دينهم، وعقولهم، وأنفسهم، وأموالهم، وأعراضهم، وإقامة العدل بينهم، ونشر الرحمة في حياتهم، والإحسان إلى ما حولهم من المخلوقات، دون أن يعود على الله سبحانه من ذلك نفع، فهو الغني الحميد، وهم الفقراء إليه في كل شأن من شؤونهم.

ومن هذا الأصل تنطلق صفحات هذا الكتاب؛ لتتبع آثار الإسلام في حياة الإنسان دائرةً بعد دائرة: بدءًا بالفرد، ثم العبادات، فالأسرة، فالمجتمع، فالإنسانية، ثم سائر المخلوقات، حتى تنتهي إلى بيان أن هذه المنافع العظيمة لا تعني أن الدنيا تصبح دار كمال، وإنما تعني أن الإسلام يحقق أفضل حياة يمكن أن يعيشها الإنسان في ظل سنن الله التي جعلها قائمة في هذه الدنيا، أما الكمال المطلق والنعيم الذي لا يشوبه نقص، فإنما أعده الله لعباده المؤمنين في دار الآخرة. [1]

[1] ليس المقصود من هذا الكتاب استقصاء جميع الحكم والأسرار التي اشتملت عليها الشريعة، فإن ذلك مما لا يحيط به إلا الله، وإنما المقصود بيان أبرز ما يظهر للناس من آثار الإسلام ومنافعه كما دلت عليه نصوص الوحي وشهد به الواقع والتاريخ.

الباب الأول

ماذا يستفيد الفرد من الإسلام؟

الفصل الأول

فوائد الإسلام للعقيدة والإيمان.

الفصل الثاني

فوائد الإسلام للقلب والروح.

الفصل الثالث

فوائد الإسلام للعقل والفكر.

الفصل الرابع

فوائد الإسلام للنفس والأخلاق.

الفصل الخامس

فوائد الإسلام للجسد والصحة.

الفصل السادس

فوائد الإسلام في حياة الإنسان اليومية.

الفصل الأول

فوائد الإسلام للعقيدة والإيمان

إن أعظم ما يمكن أن يناله الإنسان في هذه الحياة ليس مالًا يجمعه، ولا سلطانًا يملكه، ولا علمًا من علوم الدنيا يحوزه، وإنما أعظم ما يناله هو أن يهديه الله إلى معرفته، والإيمان به، وعبادته على بصيرة. فهذه هي النعمة التي تقوم عليها سعادة الإنسان في الدنيا، ويتوقف عليها فوزه في الآخرة، وهي أصل كل نعمة بعدها، كما أن فقدها أعظم خسارة يمكن أن تصيب الإنسان، قال تعالى:

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:11]

﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:122]

فالإنسان **مفطور** على البحث عن خالقه، والسؤال عن أصل وجوده، وعن الغاية من حياته، وعن مصيره بعد الموت. وهذه الأسئلة الكبرى لا يستطيع العقل المجرد أن يجيب عنها جوابًا يقينيًا مستقلًا، كما لا تستطيع الفلسفات البشرية، مهما بلغت من العمق، أن تمنح الإنسان اليقين الذي يطمئن إليه قلبه. ومن هنا كانت حاجة الإنسان إلى الوحي حاجةً أصيلة، لا تقل عن حاجته إلى الطعام والشراب، بل هي أعظم؛ لأن الطعام يحفظ حياة الجسد، أما الإيمان فيحيي القلب والعقل والروح، وبه تستقيم حياة الإنسان كلها.

وقد جاء الإسلام ليجيب عن هذه الأسئلة بأوضح بيان وأكمله، **فعرّف** الإنسان بربه المعرفة الصحيحة، فعرفه بأنه الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وأنه الخالق لكل شيء، والمالك لكل شيء، والمدبر لكل شيء، وأنه العليم بكل شيء، والقدير على كل شيء، والرحمن الرحيم، والحكيم العدل، الذي وسعت رحمته كل شيء، وأحاط علمه بكل شيء، وتنزه عن كل نقص وعيب. وهذه المعرفة ليست معرفة نظرية مجردة، بل هي معرفة تُنشئ في القلب محبة الله، وتعظيمه، والثقة به، والافتقار إليه، والرجاء فيما عنده، والخوف من عقابه، والحياء منه، فتتغير بها نظرة الإنسان إلى نفسه، وإلى الحياة، وإلى الكون من حوله.

ولم يقتصر الإسلام على تعريف الإنسان بربه، بل دعاه إلى **توحيده** وإفراده بالعبادة، لأن التوحيد هو أعظم ما خُلق الإنسان من أجله، وهو حق الله على عباده.
كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه:

{حقُّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا} متفق عليه.

وإذا تحقق التوحيد في القلب **تحرر** الإنسان من كل عبودية لغير الله؛ فلا يخضع لمخلوق فيما لا يملكه إلا الخالق، ولا يتعلق قلبه بالأسباب تعلقًا ينسيه مسببها، ولا يستعبد المالُ أو المنصبُ أو الشهرةُ قلبَه، ولا يعيش أسيرًا للخرافات والأوهام أو للخوف من المجهول. وإنما يكون قلبه متعلقًا بالله وحده، يعلم أن النفع والضر بيده، وأن العطاء والمنع منه، وأن الأمر كله إليه سبحانه.

وهذا **التحرر** من أعظم ما يمنحه الإسلام للإنسان؛ إذ ينقله من عبودية المخلوق إلى عبودية الخالق، ومن التشتت بين الآلهة والأهواء إلى وحدة الوجهة والغاية، كما قال تعالى:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر:29].

فالقلب الذي لا يعبد الله لا بد أن يستعبده شيء آخر؛ شهوة، أو مال، أو جاه، أو خوف، أو هوى، أما التوحيد فإنه يحرر القلب من هذه القيود جميعًا، ويمنحه العزة الحقيقية، كما قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:8].

ومن أعظم **ثمرات** الإيمان بالله ما يجده المؤمن من طمأنينة القلب وسكينة النفس؛ لأن قلبه متعلق بمن بيده ملكوت كل شيء، يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن ربه أرحم به من نفسه، وأعلم بما يصلحه، وأحكم فيما يقضيه ويقدره. ولذلك قال تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:28].

وهذه الطمأنينة ليست شعورًا عابرًا، بل هي أثر عميق للإيمان، يثبت صاحبه عند الشدائد، ويمنحه الصبر عند البلاء، والشكر عند النعماء، والرجاء عند اليأس، والثبات عند الفتن.

كما يورث الإيمان صاحبه حسن التوكل على الله، فيأخذ بالأسباب المشروعة دون أن يجعل ثقته معقودة بها، ويوقن أن النتائج بيد الله وحده. ويغرس فيه المراقبة والإخلاص، فيستقيم سلوكه في السر والعلن، ويثمر حسن الخلق، والصدق، والأمانة، والعدل، والرحمة، لأن هذه الأخلاق ليست مجرد عادات اجتماعية، بل هي ثمرة لإيمان حي يراقب صاحبه فيه ربه في كل قول وعمل.

ومن تأمل تشريعات الإسلام وجد أن جميع ما فيها من عبادات، وأخلاق، ومعاملات، وآداب، إنما يقوم على هذا الأصل العظيم؛ أصل **الإيمان بالله**. فالصلاة لا تؤتي ثمرتها إلا إذا قامت على الإيمان، والزكاة لا تزكي النفس إلا إذا انطلقت من الإيمان، والصيام لا يحقق التقوى إلا إذا بني على الإيمان، وكذلك سائر الأحكام. ولهذا كان الأنبياء عليهم السلام يبدؤون دعوتهم بإصلاح العقيدة قبل تفصيل الأحكام، لأن العقيدة هي الأساس الذي يقوم عليه البناء كله، فإذا صلح الأساس استقام البناء، وإذا فسد الأساس لم تغنِ عنه الزخارف شيئًا.

ولهذا كانت أعظم فائدة يقدمها الإسلام للإنسان هي هدايته إلى العقيدة الصحيحة والإيمان الصادق، لأن هذه الهداية تصحح علاقة الإنسان بربه، وتمنحه الإجابة عن أعظم أسئلة الوجود، وتحرر قلبه من كل عبودية لغير الله، وتملؤه بالطمأنينة واليقين، وتجعله ينظر إلى الحياة والناس والأحداث بمنظار الوحي، لا بمنظار الهوى أو المصلحة العابرة. ومن هذا الأصل تنبثق سائر الفوائد التي سيتناولها هذا الكتاب؛ فما من خير يحققه الإسلام للفرد أو الأسرة أو المجتمع أو الإنسانية إلا وكان الإيمان بالله أساسه ومنطلقه.

خلاصة الفصل

إن أول وأعظم ما يستفيده الإنسان من الإسلام هو الهداية إلى معرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة، والإيمان به، وتوحيده، وهي النعمة التي تقوم عليها سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة. فبها يجيب الإسلام عن الأسئلة الكبرى التي تشغل العقل الإنساني، ويحرر القلب من العبودية لغير الله، ويغرس فيه الطمأنينة واليقين، ويقيم عليه سائر الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة. ولهذا كان الإيمان بالله أصل جميع منافع الإسلام، ومنه تنطلق بقية الآثار المباركة التي سيعرضها هذا الكتاب في الفصول والأبواب الآتية.

الفصل الثاني

فوائد الإسلام للقلب والروح

إذا كان أعظم ما يمنحه الإسلام للإنسان هو الهداية إلى معرفة الله تعالى والإيمان به، فإن أول ما تظهر فيه آثار هذه الهداية هو القلب؛ فهو موضع الإيمان والكفر، ومحل اليقين والشك، ومنبع الإرادة والنية، وأصل صلاح الإنسان أو فساده. ولذلك أولى الإسلام عناية عظيمة بالقلب، وجعل إصلاحه أساسًا لإصلاح الظاهر، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:

{ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب} متفق عليه.

وليس المقصود بالقلب مجرد العضو الذي يضخ الدم في الجسد، وإنما القلب الذي يعقل ويفقه ويؤمن ويخشع، كما قال تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج:46].

ومن هنا كانت أعظم معركة يخوضها الإنسان هي معركة إصلاح قلبه، لأن صلاحه ينعكس على أقواله وأعماله وأخلاقه، وفساده يفسد حياة الإنسان كلها مهما بلغ من نجاح في جوانب أخرى.

وقد جاء الإسلام ليحيي القلب بعد موته، وينقله من ظلمات الغفلة والضلال إلى نور الإيمان والهداية. قال تعالى:

﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:122].

فالحياة الحقيقية ليست حياة الجسد وحده، وإنما حياة القلب بالإيمان، ولذلك قد يكون الإنسان حيَّ الجسد، لكنه فاقد للحياة التي خُلق من أجلها إذا خلا قلبه من الإيمان بالله. وكلما ازداد القلب معرفةً بالله، وذكرًا له، وتلاوةً لكتابه، وامتثالًا لأمره، ازدادت حياته ونوره وقوته.

ومن أعظم ما يمنحه الإسلام للقلب الطمأنينة والسكينة. فالإنسان بطبيعته يمر بالخوف، والقلق، والحزن، والاضطراب، ويواجه في حياته من الابتلاءات ما يعجز عن دفعه أو التحكم فيه. ولو تُرك إلى قوته وحدها لعاش أسيرًا لهذه المخاوف، لكن الإسلام يربطه بالله تعالى، فيجد في الإيمان به، والاعتماد عليه، واللجوء إليه، سكينةً لا تمنحها أسباب الدنيا وحدها. قال تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:28].

فذكر الله ليس مجرد ألفاظ ترددها الألسنة، بل هو حضور القلب مع ربه، واستحضار عظمته ورحمته وحكمته، فيسكن القلب إلى ربه، ويهدأ بعد اضطرابه.

كما يزكي الإسلام نفس الإنسان ويهذبها، فلا يكتفي بتنظيم الأعمال الظاهرة، بل يعالج الدوافع الباطنة التي تنشأ منها الأعمال. فيدعو إلى الإخلاص، ويحذر من الرياء، ويأمر بالتواضع، وينهى عن الكبر، ويغرس المحبة، ويزيل الحسد، ويحث على العفو، ويطهر القلب من الغل والبغضاء. ولهذا كان من مقاصد رسالة النبي صلى الله عليه وسلم تزكية النفوس، كما قال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة:2].

فالتزكية في الإسلام ليست دعوى نظرية، وإنما عملية مستمرة تهدف إلى ترقية النفس حتى تقترب من الكمال الممكن للبشر.

ولا يخلو إنسان من الابتلاء؛ فالدنيا دار امتحان، تتقلب فيها الأحوال بين السراء والضراء، والصحة والمرض، والغنى والفقر، والنصر والهزيمة. غير أن الإسلام لا يكتفي بإخبار الإنسان بهذه الحقيقة، بل يزوده بما يعينه على مواجهتها؛ فيغرس في قلبه الصبر عند الشدة، والشكر عند النعمة، والرضا بقضاء الله، وحسن التوكل عليه، والرجاء في رحمته، فلا ينهار عند المصائب، ولا يطغى عند النعم. وقد وعد الله الصابرين بمعيته الخاصة، فقال سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:153]،

ووصف المؤمنين بقوله:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:156].

وهذه المعاني ليست مجرد مواساة، بل هي قوة داخلية تمنح المؤمن القدرة على الاستمرار والثبات في مواجهة تقلبات الحياة.

ومن ثمار الإسلام كذلك أنه يمنح الإنسان الأمل الدائم، فلا يدعوه إلى اليأس من رحمة الله مهما عظمت ذنوبه، ولا إلى القنوط مهما اشتدت أزماته، قال تعالى:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر:53].

فباب التوبة مفتوح، ورحمة الله واسعة، والعبد مأمور بأن يجمع بين الخوف والرجاء، فلا يأمن مكر الله، ولا ييأس من رحمته.

وغاية ما يسعى إليه الإسلام في تربية القلب أن يبلغ الإنسان **القلب السليم**، الذي يلقى به ربه، قال تعالى:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:88-89].

والقلب السليم هو القلب الذي سلم من الشرك، وسلم من الاعتراض على الله، وسلم من الأحقاد والأهواء التي تصده عن الحق، وامتلأ بالإيمان، والإخلاص، والمحبة، والخشية، والإنابة إلى الله. وهذه هي الغاية التي تتجه إليها جميع وسائل التربية الإيمانية في الإسلام.

وخلاصة ذلك أن الإسلام لا يعتني بظاهر الإنسان وحده، بل يبدأ بإصلاح قلبه، لأنه أصل صلاح سائر الجوارح. فإذا امتلأ القلب بالإيمان، واستنار بالوحي، وتزكى بذكر الله وطاعته، ظهرت آثار ذلك في أخلاق الإنسان وسلوكه وعلاقاته، وأصبح أكثر طمأنينة، وأثبت عند الشدائد، وأرجى للخير، وأقرب إلى الرحمة والعدل والإحسان. ومن هنا كانت العناية بالقلب والروح من أعظم الفوائد التي يمنحها الإسلام للإنسان، لأنها تمثل الأساس الداخلي الذي تقوم عليه بقية منافع الشريعة في الفرد والأسرة والمجتمع.

خلاصة الفصل

إن الإسلام لا يقتصر على تنظيم أعمال الإنسان الظاهرة، بل يعتني بإصلاح قلبه وتزكية نفسه، لأن القلب هو موضع الإيمان ومنبع السلوك. فمن خلال الإيمان، وذكر الله، وتلاوة القرآن، والتوبة، والإخلاص، والصبر، والرجاء، يحقق الإسلام للقلب حياةً حقيقية، ويمنحه الطمأنينة والسكينة والثبات، ويهيئه ليكون قلبًا سليمًا يلقى به صاحبه ربه. ومن هذا الإصلاح الداخلي تنشأ الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة، فتظهر آثار الإسلام في حياة الإنسان كلها.

الفصل الثالث

فوائد الإسلام للعقل والفكر

من أعظم النعم التي أنعم الله بها على الإنسان نعمة العقل، إذ به يميز بين الحق والباطل، والخير والشر، والنافع والضار، وبه يدرك الخطاب، ويقوم عليه التكليف، ويستحق الثواب أو العقاب. ولهذا جاءت الشريعة الإسلامية محافظة على العقل، وموجهة له، ومحررة له من أسباب الانحراف والفساد، حتى عُدَّ حفظ العقل أحد المقاصد الضرورية التي جاءت الشريعة برعايتها.

ولم يأت الإسلام ليعطل العقل أو يصادر دوره، بل جاء ليهديه إلى وظيفته الصحيحة، ويبين له حدوده، ويمنحه المصادر التي توصله إلى اليقين. فالعقل في الإسلام نعمة عظيمة، لكنه ليس معصومًا من الخطأ، ولا مستغنيًا عن الوحي؛ إذ قد يدرك كثيرًا من الحقائق، ويعجز عن إدراك أخرى، ولا سيما ما يتعلق بالغيب، وأسماء الله وصفاته، والغاية من الخلق، وما يكون بعد الموت. ومن هنا كان الوحي هداية للعقل، لا منافسًا له، ومكملًا له، لا ملغيًا لدوره.

وقد أكثر القرآن الكريم من دعوة الإنسان إلى إعمال عقله، والتفكر في خلق السماوات والأرض، والتأمل في آيات الله الكونية والشرعية، فقال تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:190]،

وقال سبحانه:

﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس:101]،

وقال عز وجل:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء:82].

وهذه الدعوات المتكررة تدل على أن الإسلام لا يربي أتباعه على التقليد الأعمى، وإنما يحثهم على النظر والتأمل والتدبر، حتى يكون إيمانهم قائمًا على البصيرة واليقين.

كما حرر الإسلام العقل من سلطان الخرافة والأوهام، فنهى عن اتباع الظنون التي لا تقوم على علم، وذم التقليد الذي يعطل التفكير ويمنع الإنسان من اتباع الحق، فقال تعالى:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:36]،

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس:36].

وبذلك نقل الإنسان من الاستسلام للأوهام والأساطير إلى طلب العلم والبرهان، وربط الاعتقاد بالأدلة، لا بالموروث المجرد أو الهوى.

ومن أعظم ما يقدمه الإسلام للعقل أنه يضع له منهجًا متوازنًا في التفكير؛ فلا يطلق له العنان حتى يخوض فيما لا سبيل إليه، ولا يقيده حتى يعجز عن النظر فيما أُذن له فيه. فهناك أمور يدركها العقل بالتأمل والاستدلال، وهناك أمور غيبية لا سبيل إلى معرفتها إلا بخبر الله ورسوله. وهذا التوازن يحفظ العقل من الإفراط الذي يجعله حاكمًا على الوحي، ومن التفريط الذي يجعله معطلًا عن النظر والاستدلال.

ويغرس الإسلام في الإنسان حب العلم وطلب المعرفة، فجعل أول ما نزل من القرآن أمرًا بالقراءة، فقال تعالى:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:1]،

ورفع مكانة العلماء، فقال سبحانه:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:9]،

وقال:

﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:11].

ولم يقصر الإسلام العلم على علوم الدين، بل دعا إلى كل علم نافع يعود بالخير على الإنسان ويعينه على عمارة الأرض، ما دام منضبطًا بضوابط الشرع والأخلاق.

كما يربي الإسلام العقل على الإنصاف والعدل في الحكم على الأشخاص والأفكار، فيأمر بالتثبت من الأخبار، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات:6]،

وينهى عن اتباع الهوى في إصدار الأحكام، قال سبحانه:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة:8].

فالعقل الذي يربيه الإسلام لا ينخدع بالشائعات، ولا يبني أحكامه على الانفعال، ولا يحمله الحب أو البغض على ترك العدل والإنصاف.

ومن تمام عناية الإسلام بالعقل أنه حرم كل ما يفسده أو يعطل وظيفته، فحرم الخمر وسائر المسكرات والمخدرات، لأنها تذهب العقل الذي هو مناط التكليف، وتفسد إدراك الإنسان وسلوكه، وتوقعه في أضرار دينية ودنيوية جسيمة. قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:90].

ولم يكن هذا التحريم مجرد منع، بل كان حمايةً لإحدى أعظم نعم الله على الإنسان.

ومن تأمل هذه المبادئ وجد أن الإسلام يبني عقلًا متزنًا، يجمع بين الإيمان والعلم، وبين التفكير والتسليم، وبين الحرية والانضباط، فلا يضيع في متاهات الشك، ولا يغلق أبواب البحث النافع، بل يسير في طلب الحقيقة مستضيئًا بنور الوحي، ومستفيدًا من العقل الذي وهبه الله له.

خلاصة الفصل

لقد منح الإسلام العقل مكانة رفيعة، فدعاه إلى النظر والتفكر، وحرره من الخرافة والتقليد الأعمى، وربطه بالعلم والبرهان، ووضع له منهجًا متوازنًا يجمع بين هداية الوحي وصحيح التفكير. كما حفظه من كل ما يفسده أو يعطل وظيفته، وغرس فيه قيم التثبت والإنصاف والعدل. وبذلك لا يصبح العقل أداة لاكتساب المعرفة فحسب، بل وسيلة لفهم الوحي، وإدراك سنن الله في الكون، واتخاذ القرارات الرشيدة التي تعود بالنفع على الفرد والمجتمع، فيتحقق بذلك جانب عظيم من الفوائد التي يقدمها الإسلام للإنسان.

الفصل الرابع

فوائد الإسلام للنفس والأخلاق

لم يأت الإسلام ليضع للإنسان مجموعة من الأحكام والعبادات فحسب، وإنما جاء ليبني الإنسان بناءً متكاملًا، يصلح باطنه وظاهره، ويزكي نفسه، ويهذب أخلاقه، حتى يكون عنصر خير وإصلاح في نفسه وأسرته ومجتمعه. ولذلك كانت الأخلاق في الإسلام ليست جانبًا ثانويًا أو مكملًا للدين، بل هي ثمرة الإيمان الصادق، ومظهر من مظاهر صدق العبودية لله تعالى، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم:

{إنما بُعثتُ لأتمم صالح الأخلاق} [2]

والنفس الإنسانية تجمع بين دوافع الخير والشر، قال تعالى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس:7-10].

ومن هنا كانت تزكية النفس من أعظم مقاصد الإسلام، إذ لا يكتفي بمعالجة السلوك الظاهر، بل يعمل على إصلاح الدوافع والنيات والرغبات التي تصدر عنها الأقوال والأعمال. فكلما زكت النفس بالإيمان والطاعة، انعكس ذلك على أخلاق صاحبها ومعاملاته، وكلما استسلمت للأهواء والشهوات، ظهر أثر ذلك في الظلم والعدوان وسوء الخلق.

ويغرس الإسلام في النفس الفضائل التي تقوم عليها حياة الإنسان الكريمة، فيأمر بالصدق لأنه أساس الثقة بين الناس، وبالأمانة لأنها تحفظ الحقوق، وبالعدل لأنه قوام العمران، وبالرحمة لأنها توثق روابط المجتمع، وبالحلم والعفو لأنهما يطفئان أسباب العداوة، وبالحياء لأنه يحجز النفس عن كثير من القبائح، وبالوفاء لأنه يحفظ العهود والمواثيق. وهذه الأخلاق لا تُطلب لذاتها فحسب، بل لأنها طاعة لله، وتقرب إليه، وإحسان إلى خلقه.

---

[2] رواه أحمد في **المسند**، والبخاري في **الأدب المفرد**، وصححه الألباني، وحسنه محققو المسند (طبعة مؤسسة الرسالة).

وفي المقابل، يحذر الإسلام من الرذائل التي تفسد الفرد والمجتمع، فينهى عن الكذب، والخيانة، والظلم، والكبر، والحسد، والبخل، والغش، والخداع، والغيبة، والنميمة، وسائر الأخلاق التي تهدم الثقة بين الناس وتزرع العداوة والبغضاء. وليس المقصود مجرد تجنب هذه الصفات خوفًا من العقوبة، وإنما تطهير النفس منها حتى تصبح الأخلاق الفاضلة سجيةً راسخة، لا تصنعًا مؤقتًا.

ومن أعظم ما يميز المنهج الأخلاقي في الإسلام أنه يربط الأخلاق بالإيمان بالله واليوم الآخر، فلا يجعلها خاضعة للأذواق أو الأعراف المتغيرة وحدها. فقد يلتزم الإنسان بالأخلاق ما دامت تحقق له منفعة أو مدحًا من الناس، فإذا تعارضت مع مصلحته تركها. أما المؤمن، فإنه يعلم أن الله مطلع عليه، وأنه مسؤول عن أقواله وأفعاله، فيحمله ذلك على الصدق ولو ضره، وعلى الأمانة ولو غابت الرقابة، وعلى العدل حتى مع من يختلف معهم، قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل:90]،

وقال سبحانه:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة:8].

كما يربي الإسلام النفس على مجاهدة الهوى وضبط الشهوات، فلا يجعل الإنسان أسيرًا لرغباته، بل يدعوه إلى التحكم فيها وتوجيهها وفق ما يرضي الله. فالحرية في الإسلام ليست إطلاق النفس لتفعل ما تشاء، وإنما تحريرها من استعباد الشهوات والأهواء حتى تقودها القيم والمبادئ. ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

{ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب} متفق عليه،

فالقوة الحقيقية هي قوة السيطرة على النفس، لا قوة السيطرة على الآخرين.

ويغرس الإسلام في النفس الشعور بالمسؤولية، فيعلم الإنسان أنه محاسب على أعماله، وأن كل كلمة أو فعل أو نية لها وزنها عند الله، قال تعالى:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:7-8].

وهذا الشعور يولد رقابة ذاتية لا تعتمد على وجود سلطة أو قانون فحسب، بل تنبع من يقين الإنسان بأن الله يراه ويعلم سره وعلانيته، وهي من أقوى وسائل إصلاح السلوك واستقامة الأخلاق.

ومن ثمار هذا البناء الأخلاقي أن يعيش الإنسان في سلام مع نفسه ومع من حوله؛ فيؤدي الحقوق، ويحفظ الأمانات، ويحسن إلى الناس، ويكف أذاه عنهم، ويعاملهم بما يحب أن يعاملوه به. وبذلك تصبح الأخلاق الإسلامية قوة فاعلة في بناء الأسرة، وترسيخ الثقة في المجتمع، وتحقيق الأمن والاستقرار، وهي موضوعات سيتناولها هذا الكتاب في أبوابه اللاحقة.

وهكذا يتبين أن الإسلام لا ينظر إلى الأخلاق على أنها مجموعة من السلوكيات المهذبة فحسب، بل يعدها جزءًا من حقيقة الإيمان، ووسيلة لتزكية النفس، وطريقًا إلى رضا الله، وأساسًا لإصلاح الحياة الإنسانية. فكلما سمت أخلاق الإنسان، واقتربت من هدي الإسلام، ظهرت آثار ذلك في نفسه، وفي علاقاته، وفي المجتمع الذي يعيش فيه.

خلاصة الفصل

من أعظم ما يستفيده الإنسان من الإسلام تزكية نفسه وتهذيب أخلاقه، إذ يغرس فيه الفضائل، ويطهره من الرذائل، ويربط السلوك بالإيمان بالله ومراقبته، ويعلمه مجاهدة الهوى، وتحمل المسؤولية، والإحسان إلى الخلق. وبهذا لا تصبح الأخلاق مجرد عادات اجتماعية أو قيم متغيرة، بل تتحول إلى عبادة يتقرب بها المسلم إلى ربه، وإلى أساس تقوم عليه حياة مستقيمة، وعلاقات إنسانية يسودها العدل، والرحمة، والأمانة، والإحسان.

الفصل الخامس

فوائد الإسلام للجسد والصحة

خلق الله تعالى الإنسان من روح وجسد، وجعل لكل منهما حقوقًا لا يجوز إهمالها، فلم يأت الإسلام ليعتني بالروح على حساب الجسد، ولا بالجسد على حساب الروح، وإنما أقام التوازن بينهما، لأن صلاح الإنسان لا يكتمل إلا بصلاحهما معًا. ومن هنا جاءت تشريعات الإسلام محافظةً على صحة الإنسان وقوته، وموجهةً إياه إلى كل ما ينفعه، ومحذرةً إياه من كل ما يضره، تحقيقًا لقوله تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:29]،

وقوله سبحانه:

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:195].

وقد جعل الإسلام حفظ النفس أحد المقاصد الضرورية التي جاءت الشريعة برعايتها، فشرع من الأحكام ما يصون حياة الإنسان، ويحفظ صحته، ويمنع أسباب الهلاك والضرر. وهذه الأحكام ليست مقصودة لذاتها فحسب، بل لأنها تحفظ الإنسان ليتمكن من أداء رسالته في عبادة الله وعمارة الأرض والقيام بحقوق نفسه وغيره.

ومن مظاهر عناية الإسلام بالجسد أنه أمر بالطهارة، وجعلها مفتاحًا لكثير من العبادات، فقال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:222].

فشرع الوضوء، والغسل، ونظافة البدن والثياب والمكان، وحث على خصال الفطرة كالسواك، وقص الأظفار، وإزالة ما ينبغي إزالته من الشعر، والعناية بالنظافة الشخصية. ولا تقتصر هذه التشريعات على تحقيق الطهارة الشرعية، بل تسهم كذلك في المحافظة على صحة الإنسان، والوقاية من كثير من أسباب الأذى والمرض، مع التأكيد على أن امتثالها إنما هو طاعة لله أولًا، وما يظهر فيها من مصالح صحية فمن حكمها وآثارها.

كما دعا الإسلام إلى الاعتدال في الطعام والشراب، ونهى عن الإسراف، فقال تعالى:

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:31].

فالاعتدال يحفظ صحة الإنسان، ويقيه كثيرًا من الأضرار الناتجة عن الإفراط أو التفريط، ويعلمه أن نعم الله تستعمل في حدود الحاجة دون إسراف أو تبذير. وكذلك حرم الإسلام كل ما ثبت ضرره على العقل أو البدن، كالخمر وسائر المسكرات والمخدرات، لأنها تفسد الإنسان وتضيع دينه وصحته وعقله وماله وأسرته.

ومن التشريعات التي يظهر فيها هذا التوازن عبادة الصيام، فقد شرعها الله لتحقيق التقوى، كما قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:183].

فالمقصد الأول للصيام هو تزكية النفس وتقوية الصلة بالله، ومع ذلك قد يترتب عليه منافع صحية لبعض الناس بحسب أحوالهم، لكن هذه المنافع ليست هي العلة التي من أجلها شُرع الصيام، ولا تصح أن تكون معيارًا للحكم عليه؛ فقد تظهر لبعض الأشخاص أكثر من غيرهم، وقد تختلف باختلاف الزمان والمكان والحالة الصحية. ومنهج المسلم أن يوقن بأن ما شرعه الله حق وحكمة، سواء علم جميع حكمه أم جهل بعضها.

وكذلك حث الإسلام على القوة البدنية النافعة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

{المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير}
رواه مسلم.

والمقصود بالقوة يشمل قوة الإيمان، وقوة البدن، وسائر ما يعين الإنسان على أداء واجباته الدينية والدنيوية. ولهذا كان الاعتناء بالصحة، وممارسة ما يقوي البدن، وأخذ أسباب الوقاية والعلاج، من الأمور المشروعة إذا قصد بها الاستعانة على طاعة الله والقيام بالمسؤوليات.

ولم يغفل الإسلام جانب العلاج والتداوي، بل حث عليه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

{تداووا عباد الله، فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له دواء} [3]

---

[3] رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والنسائي في الكبرى، وصححه الألباني.

فالأخذ بالأسباب الطبية لا ينافي التوكل على الله، بل هو من تمامه، لأن الله هو الذي خلق الأسباب وأمر بالأخذ بها، وجعل الشفاء بيده سبحانه.

كما راعى الإسلام راحة الإنسان وحاجته إلى التوازن في حياته، فنهى عن الغلو والتشدد الذي يرهق النفس والجسد، وأرشد إلى الاعتدال في العبادة والعمل والراحة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما:

{إِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا} متفق عليه.

فالجسد أمانة عند صاحبه، وليس له أن يهمله أو يرهقه بما يؤدي إلى الضرر.

ومن تأمل هذه التشريعات وجد أنها ترسم للإنسان منهجًا متوازنًا في العناية بجسده، يجمع بين النظافة، والاعتدال، والوقاية، والتداوي، وتقوية البدن، دون إفراط في تعظيم الجسد حتى يصبح غاية في ذاته، ولا تفريط في حقوقه حتى يضعف عن أداء رسالته. فالإسلام ينظر إلى الجسد على أنه نعمة من الله، ووسيلة للقيام بالعبودية، لا غاية مستقلة.

خلاصة الفصل

اعتنى الإسلام بصحة الإنسان وجسده عناية متوازنة، فشرع ما يحفظ النفس، وأمر بالطهارة والنظافة، ودعا إلى الاعتدال في الطعام والشراب، وحرم كل ما يضر بالعقل أو البدن، وحث على القوة النافعة، والتداوي، ومراعاة حقوق الجسد. ومع ذلك، فإن هذه التشريعات لم تُبنَ على المصالح الصحية وحدها، بل أصلها أنها وحي من الله ورحمة بعباده، وما يترتب عليها من منافع صحية هو من آثار حكمته سبحانه. وبهذا يجمع الإسلام بين تحقيق مصالح الدين والدنيا، فيحفظ للإنسان إيمانه وصحته، ويعينه على أداء رسالته في الحياة.

الفصل السادس

فوائد الإسلام في حياة الإنسان اليومية

لا يقتصر أثر الإسلام على الجوانب العقدية أو العبادية أو الأخلاقية فحسب، بل يمتد إلى تفاصيل الحياة اليومية، فيحول الأعمال المعتادة إلى حياة منظمة تقوم على الطهارة، والانضباط، والاعتدال، والإحسان. فالإسلام ليس دينًا يمارس في أوقات محددة أو أماكن مخصوصة، وإنما هو منهج حياة يرافق الإنسان منذ استيقاظه إلى نومه، وفي بيته وعمله، وسفره وإقامته، وعلاقته بنفسه وبغيره.

ويبدأ هذا التنظيم منذ أول لحظات اليوم، إذ يربي الإسلام المسلم على افتتاح يومه بذكر الله وشكره، واستحضار نعمه، فيستقبل يومه بقلب حاضر ونفس مطمئنة. ثم يوجهه إلى المحافظة على الصلاة في أوقاتها، لأنها تربط يومه بخمسة مواقيت ثابتة، فتغرس فيه قيمة الانضباط، وتذكره بغاية وجوده وسط مشاغل الحياة، قال تعالى:

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء:103].

كما يربي الإسلام الإنسان على النظافة والترتيب في شؤونه اليومية، فيعتني ببدنه، وثيابه، ومكانه، ويحافظ على آداب الطعام والشراب، وآداب النوم والاستيقاظ، وآداب الطريق، وآداب المجالس، وآداب الاستئذان، وغير ذلك من الآداب التي قد يظنها بعض الناس أمورًا صغيرة، لكنها إذا اجتمعت صنعت إنسانًا منظمًا، حسن المعاملة، قليل الأذى، كثير النفع.

ومن أعظم ما يميز الإسلام أنه يربط الأعمال اليومية بالنية الصالحة، فيتحول كثير من المباحات إلى عبادات يثاب عليها الإنسان إذا قصد بها وجه الله. فالأكل بقصد التقوّي على الطاعة، والعمل بقصد الكسب الحلال والإنفاق على النفس والأهل، والنوم بقصد الاستعانة على العبادة، والابتسامة في وجه الناس، وإماطة الأذى عن الطريق، والإحسان إلى الجار، كلها أعمال قد تصبح قُربات إذا صاحبتها النية الصادقة. وبذلك لا ينفصل الدين عن الحياة، بل تصبح الحياة نفسها ميدانًا لعبادة الله.

ويغرس الإسلام في الإنسان قيمة احترام الوقت، فلا يدعو إلى إضاعته فيما لا ينفع، بل يحث على اغتنامه، قال النبي صلى الله عليه وسلم:

{نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ} رواه البخاري.

كما يحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة، وإتقان العمل، والوفاء بالمواعيد، وأداء الحقوق، وهي قيم تنعكس على نجاح الإنسان في حياته الشخصية والأسرية والمهنية.

ويعلم الإسلام الإنسان التوازن في حياته، فلا يطغى جانب على آخر؛ فيؤدي حق ربه، وحق نفسه، وحق أهله، وحق الناس، ويجمع بين العبادة والعمل، وبين الجد والراحة، وبين السعي للدنيا والاستعداد للآخرة. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

{إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، ولِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، ولأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ} رواه البخاري.

وبهذا التوازن يسلم الإنسان من الإفراط والتفريط، ويعيش حياة مستقرة متوازنة.

كما يربي الإسلام أتباعه على الإحسان في جميع الأعمال، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

{إن الله كتب الإحسان على كل شيء} رواه مسلم.

فالإحسان لا يقتصر على العبادات، بل يشمل العمل، والتعليم، والصناعة، والتجارة، والمعاملة، وكل ما يقوم به الإنسان. فإذا استقر هذا المعنى في النفس، أصبح المسلم يسعى إلى إتقان عمله لأنه مسؤول أمام الله قبل أن يكون مسؤولًا أمام الناس.

ومن آثار هذا المنهج أن الإسلام يخفف عن الإنسان كثيرًا من الفوضى والاضطراب في حياته؛ لأنه يقدم له آدابًا وأحكامًا تنظم شؤونه اليومية، وتجعله يعيش وفق منهج واضح، فلا يبقى حائرًا في كثير من التصرفات، ولا أسيرًا للعادات المتقلبة أو الأهواء المتغيرة، بل يهتدي بهدي الوحي في صغير أموره وكبيرها.

ويتجلى أثر الإسلام كذلك في تفاصيل الحياة اليومية التي قد يظنها بعض الناس أمورًا صغيرة، فإذا بها تصنع مع الأيام شخصية الإنسان واستقرار المجتمع. فالمسلم يبدأ يومه بذكر الله، ويحرص على الطهارة، ويصدق في حديثه، ويحفظ لسانه، ويؤدي عمله بإتقان، ويستأذن قبل الدخول، ويلقي السلام، ويحترم المواعيد، ويبر والديه، ويعطف على جاره، ويبتسم في وجه الناس، ويختم يومه بالاستغفار ومحاسبة

نفسه. وقد تبدو كل خصلة من هذه الخصال يسيرة بمفردها، لكن اجتماعها في حياة الإنسان يومًا بعد يوم يصنع فردًا صالحًا، وأسرة مستقرة، ومجتمعًا تسوده الثقة والرحمة وحسن المعاملة.

وهكذا تتحول الحياة اليومية في ظل الإسلام إلى سلسلة من الأعمال الصالحة، والنوايا الحسنة، والآداب الرفيعة، فيعيش الإنسان حياة أكثر نظامًا، وأصفى قلبًا، وأحسن خلقًا، وأكثر نفعًا لنفسه ولمن حوله. وهذا من رحمة الله بعباده؛ إذ لم يقتصر هديه على القضايا الكبرى، بل شمل أدق تفاصيل الحياة، ليكون الإسلام منهجًا شاملًا يقود الإنسان إلى الخير في كل أحواله.

خلاصة الفصل

يمتاز الإسلام بأنه ينظم حياة الإنسان اليومية تنظيمًا متوازنًا، فيربطه بالله في جميع أحواله، ويغرس فيه الانضباط، واحترام الوقت، وحسن النية، والإحسان في العمل، والتوازن بين الحقوق والواجبات، والعناية بالآداب العامة. وبهذا تتحول الأعمال اليومية من مجرد عادات متكررة إلى حياة ذات معنى وغاية، يسعى الإنسان فيها إلى رضا الله مع تحقيق مصالحه الدنيوية، فيجتمع له صلاح الدين والدنيا في منهج واحد متكامل.

خاتمة الباب الأول

تبين في هذا الباب أن أول المستفيدين من الإسلام هو الإنسان نفسه؛ إذ يبدأ هذا الدين بإصلاح أعظم ما في الإنسان، وهو قلبه وعقيدته، ثم يمتد أثره إلى عقله، وأخلاقه، ونفسيته، وجسده، وسلوكه، وحياته اليومية. فالإسلام لا يقدم للإنسان أحكامًا متفرقة، وإنما يبني شخصيته بناءً متكاملًا، يجمع بين صحة الاعتقاد، وسلامة الفكر، وطهارة القلب، وحسن الخلق، وصلاح العمل.

وقد ظهر من خلال الفصول السابقة أن أعظم نعمة يمنحها الإسلام للإنسان هي الهداية إلى معرفة الله تعالى وتوحيده، ومنها تنبع سائر الخيرات؛ فكلما رسخ الإيمان في القلب استقامت بقية جوانب الحياة. كما تبين أن الإسلام لا يخاطب جانبًا واحدًا من الإنسان ويغفل سائر جوانبه، بل يراعي فطرته التي خلقه الله عليها، فيغذي روحه بالإيمان، ويهذب نفسه بالأخلاق، ويقوم عقله بالعلم والبرهان، ويحفظ جسده بما شرعه من أسباب الطهارة والاعتدال، وينظم حياته بمنهج يحقق له الخير في دنياه وآخرته.

وهذا من أعظم دلائل كمال الشريعة؛ فإن الذي خلق الإنسان هو أعلم بما يصلحه، ولذلك جاءت أوامر الإسلام ونواهيه موافقة لفطرة الإنسان ومحققة لمصالحه الحقيقية، سواء أدركها بعقله أو خفي عليه بعضها. فما من أمرٍ أمرَ الله به إلا وهو مشتمل على خير، وما من نهي نهى عنه إلا وهو دافع لشر أو مفسدة، علم ذلك من علمه وجهله من جهله.

ومع ذلك، فإن هذه المنافع ليست هي الأساس الذي يثبت به حق الإسلام، فالإسلام حق لأنه وحي الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم، ولأن الله سبحانه هو الخالق العليم الحكيم الذي له حق الأمر والنهي. أما ما يظهر من الحكم والمصالح، فهو شاهد على كمال هذا الدين، وبرهان على رحمة الله بعباده، وليس المعيار الذي تتوقف عليه صحة الشريعة.

ومن هنا يتبين أن الإسلام لم يأت ليكلف الإنسان بما يشق عليه دون حكمة، ولا ليحرمه من الخير، وإنما جاء ليخرجه من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الإيمان

والهدى، ومن اضطراب النفس إلى طمأنينة القلب، ومن فساد الأخلاق إلى مكارمها، ومن شقاء الدنيا والآخرة إلى سعادتهما.

وإذا كان هذا الباب قد بين كيف ينتفع الإنسان بالإسلام في تكوين شخصيته وبناء ذاته، فإن السؤال الذي يطرح نفسه بعد ذلك هو:

كيف يحقق الإسلام هذه الآثار العظيمة عمليًا؟

والجواب أن من أعظم الوسائل التي شرعها الله لتحقيق هذا البناء المتكامل العبادات، التي جعلها غذاءً للإيمان، وتزكيةً للنفس، وتقويمًا للسلوك، وإصلاحًا للحياة.

ومن هنا ينتقل الكتاب إلى الباب الثاني، ليتناول بيان ما يستفيده الإنسان من العبادات التي شرعها الله تعالى، وكيف أن ثمارها كلها تعود إلى العبد، بينما يبقى الله سبحانه غنيًا عن عبادة خلقه، كامل الغنى، واسع الفضل، عظيم الرحمة.

الباب الثاني

ماذا يستفيد الإنسان من العبادات؟

الفصل الأول

فوائد الصلاة.

الفصل الثاني

فوائد الزكاة.

الفصل الثالث

فوائد الصيام.

الفصل الرابع

فوائد الحج.

الفصل الخامس

فوائد الذكر والدعاء.

الفصل السادس

فوائد تلاوة القرآن وتدبره والعمل به.

الفصل السابع

فوائد التوبة والاستغفار.

الفصل الثامن

فوائد سائر العبادات والطاعات.

الفصل الأول

فوائد الصلاة

الصلاة هي أعظم أركان الإسلام العملية بعد الشهادتين، وهي الصلة الدائمة بين العبد وربه، فرضها الله تعالى على عباده رحمةً بهم، وجعلها تتكرر خمس مرات في اليوم والليلة، لتبقى القلوب متعلقة بخالقها، ولئلا تستغرقها مشاغل الدنيا فتنسى الغاية التي خُلقت من أجلها. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

{رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة} رواه الترمذي.

وبعد أن تبين في المقدمة والتمهيد أن الله سبحانه غني عن عباده، وأن منافع الطاعة تعود إليهم، يحسن أن نتأمل ما تحققه كل عبادة من آثار عظيمة في حياة المسلم.

فالصلاة حق لله لأنه المستحق وحده للعبادة، أما ثمرتها ومنفعتها فإنها تعود إلى العبد نفسه.

وأعظم ما يستفيده الإنسان من الصلاة أنها تجدد صلته بالله تعالى في كل يوم، فيقف بين يديه خاشعًا، يقرأ كلامه، ويدعوه، ويعظمه، ويستعين به، ويجدد إيمانه وتوحيده مرات متكررة. وهذا اللقاء المتكرر يرسخ في القلب مراقبة الله، ويقوي الإيمان، ويمنع القلب من الغفلة الطويلة، ولذلك سميت صلاة؛ لأنها صلة دائمة بين العبد وربه.

ومن أعظم آثار الصلاة أنها تزكي القلب وتطهره من أدران الغفلة، فإن الإنسان معرض للخطأ والتقصير والانشغال بالدنيا، فتأتي الصلاة لتعيد قلبه إلى ربه، وتذكره بضعفه، وبمصيره، وبوقوفه بين يدي الله يوم القيامة. ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم:

{أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟} قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: **{فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا}** متفق عليه.

فكما يطهر الماء الجسد من الأوساخ، تطهر الصلاة القلب من آثار الذنوب والغفلة.

كما تغرس الصلاة في الإنسان الخشوع والتواضع، ففيها يقف الغني والفقير، والحاكم والمحكوم، والعالم والعامي، جميعهم صفًا واحدًا بين يدي ربهم، لا يميز بينهم مال ولا جاه ولا نسب، وإنما يميزهم تقواهم وخشوعهم. وهذا يربي النفس على حقيقة العبودية لله، ويكسر ما قد يدخلها من الكبر والعجب.

ومن أعظم فوائد الصلاة أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، كما قال تعالى:

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت:45].

وليس معنى ذلك أن كل من صلى لا يقع في معصية، وإنما المقصود أن الصلاة إذا أديت بإيمان وخشوع، وأقيمت على الوجه الذي شرعه الله، كانت من أعظم الأسباب التي تزجر صاحبها عن المعاصي، وتوقظ ضميره كلما هم بالوقوع في الحرام، لأنها تجدد في قلبه مراقبة الله وتعظيمه.

وتمنح الصلاة الإنسان الطمأنينة والسكينة في مواجهة هموم الحياة وتقلباتها، فكلما ضاقت عليه الدنيا وجد في الصلاة ملجأً يأوي إليه، ومناجاةً يفرغ فيها همومه بين يدي ربه، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وكان يقول لبلال رضي الله عنه:

{أرحنا بها يا بلال} رواه أبو داود.

فالصلاة ليست عبئًا على المؤمن، بل راحة لقلبه، وسكينة لنفسه، ومصدرًا لقوته وثباته.

كما تربي الصلاة الإنسان على الانضباط واحترام الوقت، إذ ترتبط بأوقات محددة لا يجوز تعمد إخراجها عنها، فيتعلم المسلم تنظيم يومه حول عبادة ربه، ويعتاد الالتزام بالمواقيت، وهو خلق ينعكس على سائر شؤون حياته. كذلك تعلمه النظام من خلال صفوف الجماعة، والاقتداء بالإمام، واحترام ترتيب العبادة، مما يغرس في النفس حب النظام والانضباط.

وللصلاة آثار عظيمة في بناء المجتمع؛ فهي تجمع المسلمين خمس مرات في اليوم في المساجد، فيتعارفون، ويتفقد بعضهم بعضًا، وتقوى بينهم روابط الأخوة، وتذوب الفوارق الاجتماعية، ويشعر الجميع أنهم عباد لله يجمعهم دين واحد ورب واحد

وقبلة واحدة. وبذلك تصبح الصلاة عاملًا من عوامل وحدة المجتمع وتماسكه، إلى جانب آثارها الإيمانية والتربوية.

ومع ما يظهر للصلاة من آثار نفسية واجتماعية وتربوية، فإن المسلم يوقن أن هذه الآثار ليست هي العلة الوحيدة لفرضها، فقد يدرك الإنسان كثيرًا من حكم الصلاة، وقد تخفى عليه حكم أخرى، لأن علم الله أوسع من علم البشر. فالصلاة عبادة محضة يتقرب بها العبد إلى ربه امتثالًا لأمره، وما يظهر فيها من مصالح إنما هو من دلائل حكمته ورحمته، لا المعيار الذي تثبت به مشروعيتها.

وهكذا يتبين أن الصلاة لم تُشرع لأن الله محتاج إلى صلاة عباده، وإنما شُرعت لأن الإنسان هو المحتاج إليها؛ يحتاج إليها ليقوى إيمانه، ويحيى قلبه، وتزكو نفسه، وتستقيم أخلاقه، وينتظم وقته، ويثبت أمام الفتن، ويجد السكينة في الشدائد، ويتهيأ للقاء ربه. فهي رحمة من الله بعباده، وهبة ربانية تتكرر كل يوم لتجدد حياة الإنسان الإيمانية والعملية.

خلاصة الفصل

الصلاة أعظم عبادة عملية في الإسلام، وهي حق لله سبحانه لأنه المستحق للعبادة، لكنه غني عن صلاة عباده جميعًا. أما العبد فهو المنتفع بها؛ إذ تقوي صلته بربه، وتزكي قلبه، وتمحو ذنوبه، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وتغرس فيه الخشوع والانضباط، وتمنحه الطمأنينة والثبات، وتقوي روابط المجتمع الإسلامي. ومن ثم فإن الصلاة ليست تكليفًا يراد به نفع الله تعالى، وإنما رحمة شرعها لعباده لينالوا بها خير الدنيا والآخرة.

الفصل الثاني

فوائد الزكاة

الزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام، وهي عبادة مالية فرضها الله تعالى على من ملك النصاب واستوفى شروط وجوبها، فجعل في جزء يسير من ماله حقًا معلومًا للفقراء والمستحقين. وقد قرن الله الزكاة بالصلاة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، مما يدل على عظيم منزلتها، فقال تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة:43].

وقد يظن بعض الناس أن الله سبحانه أمر بالزكاة لأنه يريد أموال عباده، وهذا تصور ينافي ما قرره القرآن الكريم من غنى الله المطلق. فالله تعالى هو مالك السماوات والأرض، وخزائن كل شيء بيده، ولا يحتاج إلى شيء من أموال خلقه، قال سبحانه:

﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المنافقون:7]،

وقال عز وجل:

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ:39].

فالمال الذي بين يدي الإنسان هو في حقيقته رزق من الله واستخلاف منه، وليس ملكًا مستقلًا عن إرادته سبحانه، ولذلك فإن الله لا ينتفع بإخراج الزكاة، وإنما المنتفع بها هو العبد نفسه، أفرادًا ومجتمعًا.

وأول ما تحققه الزكاة أنها تزكي نفس صاحبها، ومن هنا جاءت تسميتها؛ فهي تطهر القلب من الشح والبخل، وتربيه على السخاء، والإحسان، والرحمة، والشعور بالمسؤولية تجاه الآخرين. قال تعالى:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة:103].

فالزكاة ليست مجرد نقل جزء من المال إلى مستحقيه، بل هي تربية مستمرة للنفس، حتى لا يصبح المال سيدًا على قلب الإنسان، بل يبقى وسيلةً يستخدمها فيما يرضي الله.

كما تحرر الزكاة الإنسان من عبودية المال. فكثير من الناس يتعلق قلبه بما يملك حتى يصبح المال غايته الكبرى، فيخشى نقصه، ويجمعه من أي طريق، ويبخل بحقوق الآخرين. أما المسلم، فإن الزكاة تعلمه أن المال أمانة واستخلاف، وأن قيمته الحقيقية ليست فيما يُكنز، وإنما فيما يُستعمل في طاعة الله ونفع الناس. وبهذا يتحرر القلب من الجشع، ويزداد يقينه بأن الرزق بيد الله، وأن الإنفاق في سبيله لا ينقص المال، بل يباركه وينميه.

ومن أعظم فوائد الزكاة أنها تحقق التكافل الاجتماعي، إذ لا يترك الإسلام الفقير لمواجهة حاجاته وحده، ولا يجعل الغني معزولًا عن مسؤولياته، بل يقيم بينهما علاقة تقوم على الأخوة والرحمة والعدل. وقد بين الله تعالى مصارف الزكاة في قوله:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

[التوبة:60].

فبهذا التشريع تحفظ كرامة المحتاج، وتسد بعض حاجاته الأساسية، وتخفف من آثار الفقر والعوز، وتسهم في استقرار المجتمع.

كما تؤدي الزكاة إلى تقوية أواصر المحبة بين أفراد المجتمع؛ فحين يرى المحتاج أن الأغنياء يؤدون ما أوجب الله عليهم من حقوق، يشعر بأنه جزء من مجتمع لا يهمله، وتقل أسباب الحسد والضغينة والصراع الطبقي. وفي المقابل، يتعلم الغني الرحمة، ويستشعر نعمة الله عليه، ويزداد شكرًا لها باستعمالها فيما يرضيه سبحانه.

ومن آثار الزكاة كذلك أنها تعزز المسؤولية الاجتماعية، فلا ينظر الإنسان إلى ماله على أنه حق شخصي مطلق، بل يدرك أن فيه حقوقًا للآخرين فرضها الله، وأن أداء هذه الحقوق عبادة يتقرب بها إلى ربه. وهذا يغرس في المجتمع روح التعاون والتراحم، ويجعل التكافل جزءًا من البناء الديني، لا مجرد عمل اختياري أو استجابة عاطفية مؤقتة.

وتعلم الزكاة المسلم حسن إدارة المال، فلا يعيش أسيرًا لجمعه وتكديسه، بل ينظر إليه على أنه وسيلة لتحقيق المصالح المشروعة. كما تغرس فيه الاعتدال بين

الإمساك المشروع والإسراف المذموم، وتربيه على الإنفاق الواجب والمستحب، فيتحقق التوازن بين حق النفس وحق الأسرة وحق المجتمع.

ومع ما يظهر للزكاة من آثار اقتصادية واجتماعية عظيمة، فإن هذه الآثار ليست وحدها المقصودة من تشريعها، بل أصلها أنها عبادة يتقرب بها العبد إلى الله امتثالًا لأمره، وإقرارًا بأنه المالك الحقيقي لكل شيء. وما يترتب عليها من مصالح للفرد والمجتمع هو من تمام حكمة الله ورحمته، وليس هو الأساس الذي تُقاس به صحة هذا التشريع أو مشروعيته.

ومن تأمل هذا الركن العظيم أدرك أن الله سبحانه لم يفرض الزكاة ليستفيد من أموال عباده، فهو الغني الحميد، وإنما فرضها ليزكي نفوسهم، ويطهر قلوبهم، ويبارك أموالهم، ويقوي روابط مجتمعهم، ويحقق قدرًا من التكافل والعدل بين الناس. فالمنتفع الحقيقي بالزكاة هو الإنسان نفسه، في قلبه، وماله، وأخلاقه، ومجتمعه، وفي ثواب آخرته.

خلاصة الفصل

الزكاة عبادة مالية عظيمة شرعها الله تعالى وهو الغني عن أموال خلقه، فلا تزيد خزائنه شيئًا، ولا تنقص بتركها. وإنما شرعها رحمة بعباده، لتزكي نفوسهم، وتطهرهم من الشح، وتحررهم من عبودية المال، وتغرس فيهم السخاء والمسؤولية، وتحقق التكافل والرحمة بين أفراد المجتمع. فهي مثال جلي على أن تشريعات الإسلام، مع كونها حقًا لله تعالى، تعود ثمارها ومنافعها إلى الإنسان في دنياه وآخرته.

الفصل الثالث

فوائد الصيام

الصيام هو الركن الرابع من أركان الإسلام، وهو عبادة عظيمة فرضها الله تعالى على عباده المؤمنين، فقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:183].

فالصيام ليس عبادة خاصة بهذه الأمة، بل هو عبادة عرفتها الأمم السابقة، مما يدل على مكانتها في تزكية الإنسان وإصلاحه.

وقد يتساءل بعض الناس عن سبب شرع الصيام وغايته فالله تعالى لم يشرع الصيام لحاجة إليه، شأنه شأن سائر العبادات، فهو سبحانه الغني الحميد، لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين، بل شرعه رحمةً بعباده وتربيةً لهم على التقوى ومجاهدة النفس. فالله سبحانه لا يحتاج إلى جوع عباده ولا إلى عطشهم، وإنما شرع الصيام رحمةً بهم، ليعود خيره عليهم في دينهم ودنياهم.

وأعظم ثمرة للصيام هي تحقيق التقوى، وهي الغاية التي نص عليها القرآن الكريم، قال تعالى: **﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾** .وهذه الغاية ليست خاصة بالصيام وحده، بل هي الغاية الجامعة لجميع العبادات، كما قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:21].

فالتقوى هي أن يجعل العبد بينه وبين سخط الله وقايةً بطاعته واجتناب معصيته، والصيام من أعظم وسائل تحقيقها؛ لأنه يدرب الإنسان على مراقبة الله في السر والعلن. فالصائم قد يستطيع أن يأكل أو يشرب بعيدًا عن أعين الناس، لكنه يمتنع لأنه يعلم أن الله يراه، وبذلك تنمو في قلبه حقيقة الإخلاص والمراقبة.

ويعلم الصيام الإنسان مجاهدة نفسه وضبط شهواته، فالإنسان مفطور على حب الطعام والشراب وسائر الشهوات المباحة، فإذا استطاع أن يتركها امتثالًا لأمر الله

في وقت محدد، كان أقدر على ترك المحرمات ومقاومة الأهواء في سائر أوقاته. ولهذا كان الصيام مدرسة عملية لتقوية الإرادة، وتعويد النفس على الصبر والانضباط، حتى لا تكون أسيرة لرغباتها.

كما يربي الصيام المسلم على الصبر بجميع أنواعه؛ فهو صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على ما يجده الصائم من الجوع والعطش والمشقة. ولهذا كان شهر رمضان شهرًا تتجدد فيه معاني الثبات والتحمل، ويتعلم فيه الإنسان أن كثيرًا من المصاعب يمكن تجاوزها إذا استعان بالله وصبر على أمره.

ومن فوائد الصيام أنه يذكر الإنسان بنعم الله تعالى التي قد يألفها حتى يغفل عنها. فالطعام والشراب من أعظم النعم، فإذا امتنع عنهما ساعات امتثالًا لأمر الله، ازداد شعوره بقيمتهما، وعظم شكره لربه على ما أنعم به عليه. كما يوقظ في قلبه الرحمة بالمحتاجين والفقراء، فيدفعه ذلك إلى الإحسان إليهم والإنفاق عليهم، ولذلك كان رمضان شهر الجود والصدقة.

ويحقق الصيام تزكية للنفس وتطهيرًا للأخلاق؛ إذ لا يقتصر على الامتناع عن الطعام والشراب، بل يشمل حفظ اللسان والجوارح عن المعاصي، قال النبي صلى الله عليه وسلم:

{فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إني امرؤ صائم} متفق عليه.

وقال صلى الله عليه وسلم:

{من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه} رواه البخاري.

فالصيام الحقيقي يزكي السلوك، ويهذب الأخلاق، ويعود الإنسان على الحلم وكظم الغيظ وحسن المعاملة.

كما يجمع الصيام المسلمين على عبادة واحدة في زمان واحد، فيشعرون بوحدة الأمة، ويتبادلون التعاون والإحسان، وتكثر بينهم أعمال البر وصلة الأرحام وإغاثة

المحتاجين. فتظهر آثار الصيام في المجتمع كما تظهر في الفرد، ويصبح شهر رمضان موسمًا تتجدد فيه معاني الأخوة والتراحم والتكافل.

وقد يثبت بالبحث والتجربة أن للصيام فوائد صحية في بعض الجوانب، وقد أشارت بعض الدراسات الحديثة إلى أن الصيام المتقطع أو تقييد فترات الأكل قد يساعد في تحسين حساسية الإنسولين، وتقليل الالتهاب، ودعم صحة القلب والوزن، كما تناولت أبحاث أولية علاقته ببعض المؤشرات المرتبطة بالأمراض المزمنة، ومنها بعض أنواع السرطان، لكن هذه النتائج لا تزال في كثير منها بحاجة إلى مزيد من الدراسة والتثبت، وهذا أمر لا مانع من ذكره إذا ثبت بدليل صحيح، لكن ينبغي أن يبقى في موضعه الصحيح؛ فالمقصد الذي نص عليه القرآن هو تحقيق التقوى، أما المنافع الصحية فهي من الحكم والآثار التابعة، وقد تختلف باختلاف الأشخاص وأحوالهم، ولا يصح أن تجعل هي العلة الأساسية التي من أجلها شرع الله الصيام.

ومن تأمل هذا الركن العظيم أدرك أن الله سبحانه لم يفرض الصيام ليستفيد من جوع عباده أو عطشهم، فهو الغني عنهم وعن عبادتهم، وإنما فرضه ليطهر قلوبهم، ويقوي إيمانهم، ويهذب أخلاقهم، ويزكي نفوسهم، ويعلمهم الصبر، ويحررهم من سلطان الشهوات، ويغرس فيهم الرحمة والشكر ومراقبة الله. فالمنتفع بالصيام هو الإنسان نفسه، في دنياه قبل آخرته، وفي آخرته أعظم وأبقى.

خلاصة الفصل

الصيام عبادة عظيمة شرعها الله تعالى وهو غني عن عباده، فلا يحتاج إلى جوعهم ولا إلى عطشهم، وإنما شرعه رحمةً بهم. وأعظم ثماره تحقيق التقوى، وتقوية الإخلاص، ومراقبة الله، وتهذيب النفس، وضبط الشهوات، وتربية الإرادة على الصبر، وتعظيم نعم الله، وإحياء روح الرحمة والتكافل بين الناس. وما قد يترتب عليه من منافع صحية فهو من آثار حكمة الله، لا المقصد الأصلي الذي من أجله شُرع الصيام. وبذلك يتجلى أن منفعة الصيام كلها تعود إلى العبد، أما الله سبحانه فهو الغني الحميد.

الفصل الرابع

فوائد الحج والعمرة

الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام، فرضه الله تعالى مرة واحدة في العمر على من استطاع إليه سبيلًا، قال سبحانه:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:97].

وتجمع هذه الآية بين فرضية الحج وبين تقرير غنى الله المطلق، فكأنها تؤكد منذ البداية أن الله سبحانه لم يفرض الحج لحاجة إليه، وإنما شرعه رحمة بعباده، فمن أطاع فإنما ينفع نفسه، ومن أعرض فإن الله غني عنه وعن العالمين.

فالحج كسائر العبادات، لم يشرعه الله لينتفع به، فهو سبحانه مالك السماوات والأرض، لا يحتاج إلى قدوم الناس إلى بيته، ولا إلى طوافهم ولا سعيهم، وإنما جعل البيت الحرام قبلة لعباده، ومهوى لأفئدتهم، ومكانًا يجتمعون فيه على توحيده وذكره، فتعود بركات هذه العبادة كلها إلى الحجاج أنفسهم، في إيمانهم، وأخلاقهم، ووحدتهم، وحياتهم.

وأعظم ما يحققه الحج أنه يجدد الإيمان ويقوي التوحيد. فالحاج يترك وطنه وأهله وأعماله استجابة لأمر الله وحده، ويقصد بيتًا عظمه الله، لا لأنه يعتقد أن الأحجار تنفع أو تضر، وإنما امتثالًا لأمر الله وتعظيمًا لشعائره. ومنذ أن يلبي بقوله:**" لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك "** تتجدد في قلبه معاني التوحيد والإخلاص، ويعلن خضوعه الكامل لله وحده.

ويعلم الحج الإنسان حقيقة العبودية لله تعالى، ففيه يلتزم الحاج بأعمال مخصوصة، وأزمنة محددة، وأماكن معينة، يؤديها كما شرعها الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، دون زيادة ولا نقصان، فيتعلم أن العبودية الحقة تقوم على الاتباع والاستسلام للوحي، لا على الأهواء والآراء. ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم:

{خذوا عني مناسككم} رواه مسلم.

ومن أعظم فوائد الحج أنه يربي النفس على التواضع، ويزيل كثيرًا من الفوارق الدنيوية بين الناس. فالجميع يلبسون لباسًا متقاربًا في الإحرام، ويقفون في المشاعر نفسها، ويؤدون المناسك نفسها، فلا يظهر تميز لغني على فقير، ولا لحاكم على محكوم، ولا لعربي على أعجمي، وإنما يجتمع الجميع على عبودية الله، مصداقًا لقوله تعالى:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:13].

كما يربي الحج المسلم على الصبر وتحمل المشقة، فالمناسك تحتاج إلى بذل الجهد، واحتمال الزحام، والالتزام بالآداب الشرعية، وضبط النفس، ولذلك قال تعالى:

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ۚ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة:197].

فالحج ليس رحلةً بدنية فحسب، بل مدرسة أخلاقية يتعلم فيها المسلم الصبر، والحلم، وكف الأذى، وحسن التعامل مع الآخرين.

ومن أعظم آثار الحج أنه يجسد وحدة الأمة الإسلامية. ففي موسم واحد، وفي مكان واحد، يجتمع المسلمون من مختلف البلدان، والأعراق، واللغات، والألوان، يجمعهم دين واحد، ورب واحد، وقبلة واحدة، وشعائر واحدة. وهذا المشهد يرسخ في النفوس حقيقة الأخوة الإسلامية، ويذكر المسلمين بأنهم أمة واحدة، مهما اختلفت أوطانهم وثقافاتهم.

ويذكر الحج الإنسان بالآخرة، فمشاهد الإحرام، والوقوف بعرفة، واجتماع الناس في صعيد واحد، وما يصاحب ذلك من تضرع ودعاء، كلها توقظ في القلب ذكرى الوقوف بين يدي الله يوم القيامة، فيزداد استعدادًا لذلك اليوم، ويجدد التوبة، ويحاسب نفسه، ويعزم على الاستقامة بعد عودته.

كما يفتح الحج آفاقًا للتعارف والتعاون بين المسلمين، امتثالًا لقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات:13].

ففيه يلتقي المسلمون، ويتبادلون الخبرات، ويتعرف بعضهم إلى أحوال بعض، وتقوى بينهم روابط الأخوة، بما يعود بالنفع على الأمة كلها.

ولا يخفى أن الحج قد يترتب عليه أيضًا منافع دنيوية، كتنشيط الحركة الاقتصادية، وتبادل الخبرات، وتقوية الروابط الاجتماعية، وقد أشار القرآن إلى جانب من ذلك بقوله تعالى:

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج:28].

إلا أن هذه المنافع ليست هي الغاية الأساسية من الحج، وإنما هي من الحكم التي جعلها الله في هذه الشعيرة المباركة، أما أصل الحج فهو عبادة لله، وتعظيم لشعائره، وتحقيق للتوحيد.

ومن تأمل هذه العبادة العظيمة أدرك أن الله سبحانه لم يفرض الحج لأنه يحتاج إلى زيارة عباده لبيته، فهو رب البيت ورب العالمين، والغني عن خلقه أجمعين، وإنما فرضه ليغفر ذنوبهم، ويجدد إيمانهم، ويزكي نفوسهم، ويجمع كلمتهم، ويذكرهم بالآخرة، ويغرس فيهم معاني التواضع والطاعة والأخوة. فالمنتفع بالحج هو الإنسان نفسه، في قلبه، وسلوكه، وعلاقته بربه، وعلاقته بإخوانه المسلمين.

خلاصة الفصل

الحج عبادة عظيمة فرضها الله تعالى على المستطيع، وهو سبحانه غني عن حج عباده جميعًا. وإنما شرعه رحمةً بهم، ليجددوا إيمانهم، ويحققوا توحيدهم، ويتربوا على الطاعة، والصبر، والتواضع، ويعيشوا معنى وحدة الأمة الإسلامية، ويتذكروا لقاء ربهم يوم القيامة. وما يترتب على الحج من منافع اجتماعية أو اقتصادية أو حضارية فهو من آثار حكمة الله، أما المقصد الأعظم فهو تحقيق العبودية لله، مع عودة ثمار هذه العبادة كلها إلى العبد في دنياه وآخرته.

الفصل الخامس

فوائد الذكر والدعاء

الذكر والدعاء من أجلِّ العبادات القلبية واللسانية في الإسلام، وهما من أيسر الطاعات على اللسان، وأعظمها أثرًا في القلب والحياة. فالذكر هو دوام استحضار الله تعالى وتسبيحه وتحميده وتهليله وتكبيره والثناء عليه، أما الدعاء فهو إظهار الافتقار إلى الله وسؤاله الخير ودفع الشر. وقد أمر الله تعالى بهما في مواضع كثيرة من كتابه، فقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:41]،

وقال:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:60].

ومع أن الله يعلم كل شيء، ويعلم حاجات عباده قبل أن يسألوه، أمرهم بالذكر والدعاء. رحمة بهم، لأنهما من أعظم أسباب صلاح القلوب، وقوة الإيمان، واستقامة الحياة. فالمنتفع الحقيقي من هذه العبادة هو العبد نفسه، أما الله سبحانه فهو الغني الحميد.

وأعظم ما يحققه الذكر والدعاء أنهما يقويان صلة العبد بربه. فالإنسان إذا أكثر من ذكر الله واستدام دعاءه، بقي قلبه متعلقًا بخالقه، مستشعرًا قربه ومراقبته، فلا تستولي عليه الغفلة، ولا ينسى الغاية التي خلق من أجلها. ولهذا قال تعالى:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:152]،

وقال سبحانه:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:28].

ومن أعظم ثمرات الذكر أنه يحيي القلب ويطرد عنه الغفلة. فالقلب إذا انقطع عن ذكر الله قسا وضعف، وإذا عمر بذكره ازداد حياة ونورًا، ولذلك شبه العلماء الذكر بالغذاء الذي لا تستغني عنه الأرواح، كما لا تستغني الأجساد عن الطعام والشراب.

وكلما كان العبد أكثر ذكرًا لله، كان أقوى إيمانًا، وأشد مراقبة لربه، وأبعد عن المعاصي.

ويمنح الذكر الإنسان السكينة والطمأنينة في مواجهة هموم الحياة. فالشدائد، والابتلاءات، والضغوط النفسية، كثيرًا ما تثقل القلب، فيجد المؤمن في ذكر الله راحةً لا يجدها في شيء من متاع الدنيا. وليس ذلك مجرد شعور عابر، بل هو وعد إلهي صريح: **﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾**. ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من ذكر الله في جميع أحواله، لأن الذكر يربط القلب بمن بيده الأمر كله.

أما الدعاء، فإنه يربي الإنسان على حقيقة الافتقار إلى الله. فالإنسان بطبعه ضعيف، محدود القدرة، كثير الحاجة، مهما بلغ من القوة والعلم والمال. فإذا رفع يديه إلى ربه داعيًا، اعترف عمليًا بأنه لا غنى له عن الله، وأن خزائن الخير كلها بيده سبحانه. وهذا الشعور يحرره من الغرور والاعتماد على النفس وحدها، ويغرس فيه التوكل الصادق، والثقة بربه، وحسن الظن به.

كما يفتح الدعاء باب الأمل أمام الإنسان، فلا ييأس مهما اشتدت عليه المحن، لأنه يعلم أن له ربًا يسمع دعاءه، ويقدر على كشف ضره، وإصلاح شأنه، وإجابة سؤاله بما تقتضيه حكمته. وقد تكون إجابة الدعاء بإعطاء المطلوب، أو بصرف شر أعظم، أو بادخار الأجر لصاحبه في الآخرة، وكل ذلك خير للعبد، وإن لم يدرك حكمته في حينه.

ويهذب الذكر والدعاء أخلاق الإنسان وسلوكه؛ فمن أكثر من ذكر الله استحيا أن يعصيه، ومن اعتاد الدعاء ازداد تواضعًا، ولينًا، وصبرًا، ورضًا بقضاء الله. فاللسان الذي اعتاد التسبيح والتحميد والاستغفار، يقل انشغاله بالغيبة والكذب والفحش، والقلب الذي امتلأ بالدعاء يقل امتلاء جوانبه بالكبر والقسوة واليأس.

ومن آثار الذكر والدعاء أنهما يقويان صلة المسلم بالقرآن والسنة، لأن أكثر الأذكار والأدعية المأثورة مأخوذة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فيعتاد المسلم ألفاظ الوحي ومعانيه، ويجري ذكر الله على لسانه في صباحه ومسائه، وعند طعامه وشرابه، وسفره وإقامته، ونومه واستيقاظه، فتغدو حياته كلها عامرة بذكر الله.

ولا ينبغي أن يُفهم من فوائد الذكر والدعاء أن الغاية منهما مجرد تحصيل الراحة النفسية أو تحقيق المطالب الدنيوية، فهذه آثار مباركة، لكنها ليست المقصد الأعلى. وإنما المقصد الأعظم هو تحقيق العبودية لله، وتعظيمه، ومحبته، والافتقار إليه، وما يفيض على العبد من السكينة والقوة والهداية هو من تمام رحمة الله وحكمته.

ومن تأمل هذه العبادة العظيمة أدرك أن الله سبحانه لم يأمر عباده بذكره ودعائه لأنه محتاج إلى ثنائهم أو سؤالهم، فهو سبحانه كامل في ذاته وصفاته، غني عن خلقه أجمعين. وإنما أمرهم بذلك لأن قلوبهم هي التي تفتقر إلى ذكره، وأنفسهم هي التي تحتاج إلى دعائه، وحياتهم هي التي تستقيم بالصلة الدائمة به. فالذكر والدعاء نعمة منحها الله لعباده، وجعل فيها حياة القلوب، وطمأنينة النفوس، وثبات المؤمنين.

خلاصة الفصل

الذكر والدعاء عبادتان جليلتان شرعهما الله تعالى وهو الغني عن عباده، فلا تزيده أذكارهم كمالًا، ولا يفتقر إلى دعائهم وسؤالهم. وإنما شرعهما رحمةً بهم، ليحييا قلوبهم، ويقويا إيمانهم، ويغرسا فيهم مراقبة الله، والتوكل عليه، والافتقار إليه، وحسن الظن به، ويمنحاهم الطمأنينة والثبات في مواجهة تقلبات الحياة. فكل ما يجنيه العبد من ثمار الذكر والدعاء إنما يعود إليه في دنياه وآخرته، أما الله سبحانه فهو الغني الحميد.

الفصل السادس

فوائد تلاوة القرآن وتدبره والعمل به

القرآن الكريم هو كلام الله تعالى المنزل على خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم، وهو أعظم كتاب عرفته البشرية، جعله الله هداية للناس، ونورًا يهدي إلى الحق، وشفاء لما في الصدور، ورحمة للمؤمنين، فقال سبحانه:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:9]،

وقال تعالى:

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:29].

أنزل الله القرآن رحمة بعباده، وهداية لهم، وجعل تلاوته وتدبره والعمل به سببًا لسعادتهم في الدنيا والآخرة. فالمنتفع بالقرآن هو الإنسان، أما الله سبحانه فهو الغني الحميد.

وأعظم ما يستفيده الإنسان من القرآن أنه يعرفه بربه سبحانه وتعالى؛ فيعرف أسماءه الحسنى، وصفاته العلى، وأفعاله، وسننه في خلقه، فيزداد إيمانًا ومحبةً وخشيةً ورجاءً. فالقرآن هو المصدر الأول الذي يتلقى منه المسلم عقيدته الصحيحة، وبه يثبت التوحيد في القلب، وتزول عنه الشبهات والضلالات.

كما يهدي القرآن الإنسان إلى الحق في جميع شؤون حياته، فيبين له الغاية من وجوده، ويعرفه بمن أين جاء، ولماذا خُلق، وإلى أين المصير، ويضع له الميزان الذي يميز به بين الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال. ولذلك وصفه الله بأنه هداية، فقال:

﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:2].

ومن أعظم فوائد تلاوة القرآن أنها تحيي القلب وتزيد الإيمان، فكلما قرأ المؤمن كلام ربه ازداد يقينًا وتعظيمًا له، وتأثر بوعده ووعيده، وقصصه وأمثاله، قال تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال:2].

فالقرآن ليس كتاب معلومات فحسب، بل هو كتاب يربي القلوب ويزكي النفوس.

ولا تقتصر الاستفادة على مجرد التلاوة، بل إن المقصود الأعظم هو التدبر، وهو التأمل في معاني القرآن وفهم مقاصده، حتى تتحول آياته إلى هداية عملية في حياة الإنسان. ولذلك قال تعالى:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء:82].

فالتدبر ينقل القارئ من مجرد تحريك اللسان إلى حضور القلب، ومن معرفة الألفاظ إلى العمل بالهداية.

ومن ثمرات القرآن أنه يهذب الأخلاق ويقوم السلوك، فهو يأمر بالصدق، والأمانة، والعدل، والرحمة، والإحسان، والعفة، والصبر، وينهى عن الكذب، والظلم، والغش، والكبر، والفحشاء، وسائر الرذائل. فإذا استجاب الإنسان لتوجيهاته انعكس ذلك على شخصيته، فأصبح أصلح لنفسه، وأنفع لأسرته، وأحسن تعاملًا مع مجتمعه.

كما يحرر القرآن العقل من الأوهام والخرافات والتقليد الأعمى، ويدعو إلى النظر والتفكر والاستدلال، ويقيم الإيمان على البصيرة والحجة، ويكرر دعوة الإنسان إلى التأمل في الكون والنفس والتاريخ، مما يجعل المسلم يجمع بين الإيمان الصحيح والتفكير السليم.

ويمنح القرآن الإنسان الطمأنينة والثبات في مواجهة تقلبات الحياة؛ ففيه الوعد للمؤمنين، والتسلية للمبتلين، والبشارة للصابرين، والتذكير برحمة الله وسعة مغفرته، كما فيه التحذير من الغرور والغفلة. ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يجدون في القرآن أعظم مصدر للقوة والصبر والثبات.

والغاية من القرآن لا تتحقق بمجرد التلاوة، مع فضلها العظيم، وإنما تكتمل بالتدبر والعمل. فالإنسان قد يقرأ القرآن كثيرًا، لكن الانتفاع الحقيقي يكون عندما تتحول أوامره ونواهيه وقيمه إلى واقع يعيشه في عبادته، وأخلاقه، ومعاملاته، وعلاقاته

بالناس. ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم التطبيق العملي للقرآن، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: **{كان خلقه القرآن}** رواه مسلم.

وقد يظهر للناس من آثار القرآن ما ينعكس على راحة النفس، واستقرار المجتمع، وصلاح الأخلاق، ورقي الحضارة، وكل ذلك من بركات هذا الكتاب العظيم، لكن هذه الآثار تابعة للمقصد الأعظم، وهو هداية الإنسان إلى عبادة الله وحده، وإصلاح دنياه وأخراه وفق منهج الوحي.

ومن تأمل هذا التشريع أدرك أن الله سبحانه لم يأمر عباده بتلاوة القرآن وتدبره والعمل به لأنه محتاج إلى قراءتهم، فهو المتكلم به، والغني عن خلقه أجمعين، وإنما أنزله ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى أقوم السبل، ويصلح عقائدهم، وقلوبهم، وعقولهم، وأخلاقهم، ومجتمعاتهم. فالقرآن أعظم نعمة أنعم الله بها على البشرية بعد نعمة الإيمان، ومن أعظم مظاهر رحمته بعباده.

خلاصة الفصل

القرآن الكريم هو كتاب هداية ورحمة أنزله الله تعالى وهو الغني عن العالمين، فلا ينتفع سبحانه بتلاوة عباده له، وإنما تعود منافع هذه العبادة إليهم. فتلاوة القرآن، وتدبره، والعمل به تعرف الإنسان بربه، وتقوي إيمانه، وتهذب أخلاقه، وتقوم فكره، وتطمئن قلبه، وتهديه إلى أقوم سبيل في شؤون دينه ودنياه. ومن ثم فإن أعظم المنتفعين بالقرآن هم الذين يجعلونه منهجًا لحياتهم، لا مجرد كتاب يتلى بالألسنة، بل نورًا يهدي العقول، ويحيي القلوب، ويصلح الأعمال.

الفصل السابع

فوائد التوبة والاستغفار

التوبة والاستغفار من أجلِّ الطاعات التي شرعها الله لعباده، وهما من أعظم مظاهر رحمته بهم؛ لأن الإنسان مفطور على النقص، ومعرض للخطأ والذنب، فلا يخلو أحد من التقصير، ولذلك لم يغلق الله باب الرجوع إليه، بل فتحه لعباده ما داموا في زمن التكليف، ودعاهم إلى التوبة، ووعدهم بقبولها إذا صدقت، فقال سبحانه:

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:31]،

وقال تعالى:

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود:3].

وقد شرع الله التوبة رحمةً بعباده، وفتح لهم بابها ليعودوا إليه كلما أخطؤوا، فلا يقنطوا من رحمته، ولا تستولي عليهم ذنوبهم حتى تهلكهم. قال النبي صلى الله عليه وسلم:

{كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون} رواه الترمذي وابن ماجه.

فالتوبة ليست منفعة لله، وإنما هي نجاة للعبد وإصلاح لحاله.

وأعظم ما تحققه التوبة أنها تعيد الإنسان إلى ربه، وتجدد صلته به بعد أن أفسدتها المعصية. فالمذنب إذا تاب توبة صادقة، شعر بقرب الله ورحمته، وعاد إلى طريق الطاعة بقلب أكثر تواضعًا وإنابة، فيزداد إيمانًا، ويعظم رجاؤه بربه، ويستقر في نفسه أن باب الرحمة مفتوح لكل من صدق في الرجوع.

كما أن التوبة تطهر القلب من آثار الذنوب، فإن المعاصي تترك في القلب أثرًا من القسوة والظلمة، فإذا أكثر العبد من التوبة والاستغفار زالت تلك الآثار بإذن الله، وعاد القلب حيًا مقبلًا على الخير. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

{إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه...} رواه الترمذي وابن ماجه.

ويمنح الاستغفار الإنسان راحة نفسية عظيمة؛ لأنه يحرره من اليأس والقنوط، ويغرس في قلبه الأمل في رحمة الله ومغفرته. فمهما عظم الذنب، فإن رحمة الله أعظم، وقد قال سبحانه:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:53].

وهذه الآية من أعظم ما يبعث الرجاء في نفوس المذنبين، ويدعوهم إلى عدم الاستسلام للخطأ، بل إلى إصلاحه.

وتربي التوبة الإنسان على محاسبة نفسه، فلا يبرر أخطاءه، ولا يلقي تبعتها على غيره، بل يعترف بتقصيره، ويسعى إلى إصلاحه. وهذه النفس اللوامة التي تراجع أعمالها باستمرار هي أقرب إلى الاستقامة من النفس التي تغفل عن عيوبها أو تستكبر عن الاعتراف بها. ومن هنا كانت التوبة مدرسة في الصدق مع النفس، والشجاعة في الاعتراف بالخطأ، والعزم على الإصلاح.

كما تدفع التوبة إلى إصلاح ما ترتب على الذنب من حقوق، فإذا كان الذنب متعلقًا بحقوق العباد، لم تكتمل التوبة إلا برد المظالم إلى أهلها أو طلب العفو منهم، وبذلك لا تكون التوبة مجرد شعور داخلي، بل تتحول إلى إصلاح عملي يعيد الحقوق إلى أصحابها، ويقوي الثقة بين أفراد المجتمع.

ومن آثار الاستغفار التي أخبر بها القرآن أنه سبب لنزول الخيرات والبركات، قال تعالى على لسان نوح عليه السلام:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح:10-12].

فهذه الآثار الدنيوية من بركات الاستغفار إذا تحققت شروطه، وهي تابعة للمقصد الأعظم، وهو مغفرة الذنوب وإصلاح القلب.

ولا ينبغي أن يفهم من فضل التوبة أن الإنسان يتساهل في المعاصي اعتمادًا على سعة رحمة الله، فإن التوبة الصادقة تقتضي الإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزم

على عدم العودة إليه، ورد الحقوق إلى أصحابها إن تعلقت بها. فهي ليست ترخيصًا في الخطأ، وإنما طريق لتصحيحه وإزالة آثاره.

ومن تأمل هذه العبادة العظيمة أدرك أن الله سبحانه لم يفتح باب التوبة لأنه ينتفع برجوع عباده إليه، فهو الغني الحميد، وإنما فتحه رحمةً بهم، لينقذهم من آثار الذنوب، ويطهر قلوبهم، ويجدد إيمانهم، ويمنحهم فرصة جديدة للسير في طريق الهدى. ولو أغلق الله باب التوبة، لشقيت البشرية باليأس والقنوط، ولكن من رحمته أن جعل الرجوع إليه مفتوحًا لكل من صدق في الإنابة.

خلاصة الفصل

التوبة والاستغفار عبادتان عظيمتان شرعهما الله تعالى وهو الغني عن عباده، فلا تزيده توبة التائبين كمالًا، ولا يضره إعراض المذنبين. وإنما شرعهما رحمةً بخلقه، ليغفر ذنوبهم، ويطهر قلوبهم، ويجدد إيمانهم، ويبعث فيهم الأمل، ويعلمهم محاسبة النفس وإصلاح الخطأ. فالتوبة ليست منفعة تعود إلى الله سبحانه، وإنما هي أعظم أبواب الرحمة التي تعود آثارها إلى الإنسان في قلبه، وسلوكه، وحياته، وآخرته.

الفصل الثامن

فوائد سائر العبادات والطاعات

لم يقتصر الإسلام على العبادات الكبرى كالصلاة والزكاة والصيام والحج، بل شرع للمسلم أبوابًا كثيرة من الطاعات والقربات تمتد إلى جميع جوانب الحياة. فكل عمل صالح يقصد به وجه الله يدخل في معنى العبادة، سواء كان عبادة محضة، أو إحسانًا إلى الناس، أو خلقًا كريمًا، أو عملًا نافعًا. وهذا من كمال هذا الدين وشموله؛ إذ جعل حياة الإنسان كلها ميدانًا لعبادة الله إذا صحت النية واستقام العمل.

شرع الله الطاعات وأنواع البر المختلفة رحمةً بعباده، لأن الناس تختلف أحوالهم وقدراتهم وميولهم، ففتح لهم أبواب الخير على اختلافها، ليجد كل إنسان طريقًا يتقرب به إلى ربه، وينتفع به في نفسه ومجتمعه. قال النبي صلى الله عليه وسلم:

{كُلُّ سُلامى مِنَ النَّاسِ عليه صَدَقةٌ كُلَّ يَومٍ تَطلُعُ فيه الشَّمسُ؛ يَعدِلُ بينَ الاثنَينِ صَدَقةٌ، ويُعينُ الرَّجُلَ على دابَّتِه فيَحمِلُ عليها، أو يَرفَعُ عليها مَتاعَه: صَدَقةٌ، والكَلِمةُ الطَّيِّبةُ صَدَقةٌ، وكُلُّ خُطوةٍ يَخطوها إلى الصَّلاةِ صَدَقةٌ، ويُميطُ الأذى عَنِ الطَّريقِ صَدَقةٌ....} حتى قال: **{ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى}** متفق عليه.

ومن أعظم هذه الطاعات **بر الوالدين**، فقد جعله الله بعد توحيده مباشرة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، فقال تعالى:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء:23].

وبر الوالدين لا ينتفع به الله سبحانه، وإنما ينتفع به الوالدان، ويتهذب به الابن أو الابنة، وتستقر به الأسرة، ويترسخ به خلق الوفاء والرحمة، وتنتقل هذه القيم من جيل إلى جيل.

ومن الطاعات العظيمة **صلة الرحم**، وهي سبب لتقوية الروابط الأسرية، وإشاعة المحبة، وتقليل القطيعة والعداوة بين الأقارب. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: **{من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه}** متفق عليه.

فصلة الرحم تعود بالنفع على الفرد والأسرة والمجتمع، ولا يعود شيء من نفعها إلى الله سبحانه، فهو الغني عن خلقه.

وكذلك **الصدقة**، فهي تزيد على الزكاة في كونها بابًا واسعًا للإحسان، يبذل فيه المسلم من ماله ابتغاء مرضاة الله، فيخفف بها حاجة المحتاجين، ويواسي المنكوبين، ويعين أصحاب الحاجات، وفي الوقت نفسه تزكو نفسه، ويزداد كرمه، ويتحرر قلبه من الشح. فالمنتفع بالصدقة هو المعطي والآخذ والمجتمع بأسره.

ومن أجلِّ الطاعات **طلب العلم** النافع وتعليمه. فالعلم يهدي إلى معرفة الله، وتصحيح العقيدة، وإقامة العبادة على وجهها الصحيح، وإصلاح الفكر والسلوك. كما أنه أساس نهضة الأمم ورقيها، ولذلك رفع الله شأن العلماء، فقال تعالى:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:9].

وطلب العلم عبادة يعود نفعها إلى طالب العلم، ومن يتعلم منه، وإلى المجتمع كله.

ومن الطاعات كذلك **الدعوة إلى الله**، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهي وسائل لحفظ المجتمع من الانحراف، ونشر الخير، وتقليل الفساد، وإقامة التعاون على البر والتقوى. قال تعالى:

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران:104].

وهذه الطاعات لا يحتاجها الله سبحانه، وإنما يحتاج إليها الناس ليصلح بعضهم بعضًا، ويتعاونوا على الخير.

ومن أعظم أبواب الطاعة **الإحسان** إلى الخلق جميعًا، فيشمل الإحسان إلى المسلم وغير المسلم، وإلى القريب والبعيد، وإلى الإنسان والحيوان، بل وإلى البيئة التي استخلف الله الإنسان فيها. فقد أمر الإسلام بالرفق بالحيوان، ونهى عن تعذيبه، وجعل في الإحسان إليه أجرًا، كما أمر بالمحافظة على الموارد، ونهى عن الإفساد في الأرض، فقال تعالى:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:56].

وبذلك تتجاوز آثار الطاعات حدود الفرد لتشمل المجتمع والكون الذي يعيش فيه الإنسان.

كما يدخل في العبادة كل عمل مباح يقصد به وجه الله تعالى. فالعمل لكسب الرزق الحلال، والإنفاق على الأسرة، وإتقان المهنة، وقضاء حوائج الناس، وإصلاح ذات البين، وإماطة الأذى عن الطريق، والابتسامة في وجه الآخرين، كلها أعمال قد تتحول إلى عبادات إذا صاحبتها النية الصالحة. وهذا من أعظم خصائص الإسلام؛ إذ لا يحصر العبادة في الشعائر، بل يجعل الحياة كلها مجالًا للتقرب إلى الله.

ومن تأمل تنوع الطاعات في الإسلام أدرك أنها ليست تكاليف متفرقة لا رابط بينها، بل هي منظومة متكاملة لبناء الإنسان الصالح والمجتمع الصالح. فكل عبادة تغذي جانبًا من شخصية الإنسان، وكل طاعة تعالج نقصًا أو تقوي فضيلة، حتى يكتمل بناء الفرد في عقيدته، وأخلاقه، وعقله، وعلاقاته، وسلوكه.

ولا ينبغي أن يظن أن قيمة الطاعات تقاس فقط بما يظهر من منافعها الدنيوية، فإن أعظم مقاصدها تحقيق العبودية لله تعالى، ونيل رضوانه وثوابه. وما يظهر من آثارها في إصلاح الإنسان والأسرة والمجتمع هو من دلائل حكمة الله ورحمته، لا العلة الوحيدة لتشريعها.

ومن هنا يتبين أن جميع الطاعات التي شرعها الإسلام، ومهما تنوعت صورها، فإنها تشترك في حقيقة واحدة، وهي أن الله سبحانه غني عنها جميعًا، وأن العباد هم المحتاجون إليها. بل إن كثيرًا من الأعمال الصالحة قد ترتقي إلى مرتبة العبادة، فهي تزكي نفوسهم، وتصلح أخلاقهم، وتقوي روابطهم، وتبني حضارتهم، وتحقق لهم الخير في الدنيا، وتعدهم للفوز في الآخرة، إذا وافقت شروطها الشرعية، وصحت فيها النية، وجرت على وفق ما شرعه الله ورسوله. ومتى فقدت هذه الشروط لم تكن نافعةً لصاحبها النفع المأمول، بل قد تكون من العمل الذي يضل سعي صاحبه، كما قال تعالى:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:103-104].

خلاصة الفصل

جميع العبادات والطاعات التي شرعها الإسلام، سواء كانت شعائر ظاهرة أو أعمالًا قلبية أو أخلاقًا أو إحسانًا إلى الخلق، إنما شرعها الله تعالى رحمةً بعباده، لا حاجةً إليها. فهي تبني الإنسان، وتصلح الأسرة، وتقوي المجتمع، وتنشر الخير بين الناس، وتمتد آثارها إلى الإنسان والحيوان والبيئة. وبهذا تتجلى شمولية الإسلام، إذ يجعل حياة الإنسان كلها طريقًا إلى الخير، ويعود نفع ذلك كله إلى العبد في دنياه وآخرته، أما الله سبحانه فهو الغني الحميد.

خاتمة الباب الثاني

تناول هذا الباب بيان ما يستفيده الإنسان من العبادات التي شرعها الله تعالى، من الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والذكر، والدعاء، وتلاوة القرآن، والتوبة، وسائر الطاعات. وقد ظهر من خلال هذه الفصول أن هذه العبادات، على اختلاف صورها ومقاصدها الخاصة، تجتمع على أصل واحد عظيم، وهو أن الله سبحانه شرعها رحمةً بعباده، لا حاجةً إليها.

فالله عز وجل هو الغني الحميد، كامل الغنى من جميع الوجوه، لا تزيده طاعة الطائعين ملكًا، ولا تنقصه معصية العاصين سلطانًا، وإنما جعل العبادات وسائل لتزكية النفوس، وتقويم العقول، وتهذيب الأخلاق، وإصلاح الفرد والأسرة والمجتمع، والفوز برضوانه في الآخرة.

وقد تبين أن كل عبادة تحمل من الحكم والمصالح ما يعود على العبد نفسه؛ فالصلاة تصلح القلب وتنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة تزكي النفس والمال وتحقق التكافل، والصيام يربي التقوى والصبر، والحج يجدد الإيمان ويوحد الأمة، والذكر والدعاء يحييان القلب ويقويان الصلة بالله، والقرآن يهدي للتي هي أقوم، والتوبة والاستغفار يفتحان للإنسان باب الإصلاح والرجوع إلى الله، وسائر الطاعات تكمل بناء شخصية المسلم وتملأ حياته بالخير والبركة.

ومع هذا كله، فإن هذه المصالح ليست هي الأساس الذي تثبت به مشروعية العبادات، فالمسلم يعبد الله أولًا لأنه سبحانه المستحق للعبادة، ولأن أمره حق، وحكمه عدل، ووحيه صدق. أما ما يظهر من الحكم والمنافع، فهو من دلائل كمال شريعته، وسعة رحمته، وعظيم إحسانه إلى خلقه، وقد يعلم الناس بعض هذه الحكم، وتخفى عليهم حكم أخرى، ويبقى وجوب الامتثال ثابتًا في جميع الأحوال.

كما أن الانتفاع الحقيقي بالعبادات لا يتحقق بمجرد أداء صورها الظاهرة، بل لا بد أن تؤدى على الوجه الذي شرعه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، مع الإخلاص لله، والمتابعة لرسوله، فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا له، موافقًا لشرعه. فكلما ازداد العبد إخلاصًا واتباعًا، ازداد نصيبه من ثمار العبادة وآثارها في الدنيا والآخرة.

وبذلك يتأكد أن الإسلام لم يجعل العبادة غاية منفصلة عن حياة الإنسان، بل جعلها أساسًا يبني شخصيته، ويصلح قلبه، ويقوم سلوكه، ويهيئه للقيام برسالته في الأرض. فالعبادة في الإسلام ليست عبئًا على الإنسان، وإنما هي من أعظم نعم الله عليه، لأنها الطريق الذي يوصله إلى صلاح دنياه، وسعادة آخرته.

وبعد أن تبين ما يجنيه الإنسان من العبادات، يحسن الانتقال إلى دائرة أوسع، وهي بيان ما يحققه الإسلام من مصالح للأسرة، باعتبارها اللبنة الأولى في بناء المجتمع، ومنها تتسع دائرة الخير حتى تشمل المجتمع بأسره، ثم الإنسانية كلها.

الباب الثالث

ماذا تستفيد الأسرة من الإسلام؟

الفصل الأول

بناء الأسرة على الإيمان.

الفصل الثاني

الزواج والاستقرار الأسري.

الفصل الثالث

حقوق الزوجين.

الفصل الرابع

تربية الأبناء.

الفصل الخامس

بر الوالدين وصلة الأرحام.

الفصل السادس

النفقة والميراث والتكافل الأسري.

الفصل الأول

بناء الأسرة على الإيمان

الأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع، فإذا صلحت صلح المجتمع، وإذا فسدت انعكس فسادها على الأفراد والأمة بأسرها. ولذلك أولى الإسلام عنايةً عظيمة بالأسرة، فلم يجعلها مجرد رابطة اجتماعية أو عقدًا ينظم العلاقة بين الرجل والمرأة، وإنما جعلها مؤسسة تربوية وإيمانية تقوم على عبادة الله تعالى، وتربية أجيال تعرف ربها، وتؤدي رسالتها في الحياة.

ومن هنا كانت أول نعمة يقدمها الإسلام للأسرة هي أنه يبنيها على أساس ثابت لا يتغير بتغير المصالح أو الظروف، وهو الإيمان بالله تعالى. فالإيمان ليس شأنًا فرديًا يقتصر أثره على علاقة الإنسان بربه، بل هو القوة التي تشكل أخلاق أفراد الأسرة، وتوجه قراراتهم، وتنظم علاقاتهم، وتعينهم على أداء حقوقهم وواجباتهم.

وقد جعل القرآن الكريم الإيمان والتقوى أساس الحياة الأسرية، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:6].

ففي هذه الآية تكليف للأسرة كلها بأن تكون بيئةً تحفظ الإيمان، وتعين على الطاعة، وتحمي أفرادها من أسباب الانحراف. كما قال سبحانه:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه:132]،

فدل ذلك على أن رعاية الأسرة لا تقتصر على النفقة والمأكل والمسكن، بل تشمل قبل ذلك التربية على عبادة الله والاستقامة على دينه.

والإيمان المشترك بين أفراد الأسرة يحقق وحدةً في المقاصد والقيم، فيصبح الزوجان متعاونين على طاعة الله، ويحرص كل منهما على صلاح الآخر، ويجتهدان في تربية أبنائهما على الإيمان والفضيلة. ولهذا وصف الله المؤمنين بقوله:

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:74].

فغاية الأسرة في الإسلام ليست مجرد العيش المشترك، وإنما تكوين بيت صالح تقر به العيون في الدنيا، ويجتمع أفراده في نعيم الآخرة.

ومن أعظم آثار بناء الأسرة على الإيمان أن العلاقة بين أفرادها لا تقوم على المنفعة المجردة، ولا على العاطفة وحدها، وإنما تقوم على عبادة الله وتقواه. فالزوج يحسن إلى زوجته امتثالًا لأمر الله، والزوجة تطيع زوجها في المعروف ابتغاء مرضاة الله، والوالدان يحسنان تربية أولادهما طلبًا للأجر، والأبناء يبرون والديهم طاعة لله. وبهذا تكتسب العلاقات الأسرية بعدًا إيمانيًا يجعلها أكثر ثباتًا واستقرارًا، حتى عند تغير الأحوال أو وقوع الخلافات.

كما يغرس الإيمان في الأسرة معاني الرحمة، والعفو، والصبر، والإحسان، والتسامح. فكل فرد يعلم أنه مسؤول أمام الله عن قوله وعمله، وأن حسن الخلق عبادة يؤجر عليها، وأن الظلم والإساءة محاسَب عليهما. وهذا الوازع الداخلي من أعظم أسباب استقرار الأسرة، لأنه يجعل الالتزام بالحقوق نابعًا من مراقبة الله قبل مراقبة الناس أو الخوف من العقوبات.

ويمنح الإيمان الأسرة القدرة على مواجهة الابتلاءات التي لا تخلو منها حياة البشر. فقد تمر الأسرة بضيق في الرزق، أو مرض، أو فقد عزيز، أو خلاف بين أفرادها، لكن الإيمان يمدها بالصبر، والرضا، وحسن التوكل، ويمنعها من اليأس والقنوط. ولذلك كان القرآن يربط بين الإيمان والصبر، ويبين أن معية الله ونصره وتوفيقه لأهل الإيمان.

ومن آثار الإيمان كذلك أنه يوجه الأسرة إلى تربية الأبناء على المبادئ الثابتة، فلا يكون معيار التربية مجرد تحقيق النجاح المادي، بل تنشئة الأبناء على الصدق، والأمانة، والرحمة، والعدل، وتحمل المسؤولية، وتعظيم حقوق الله وحقوق العباد. وبهذا تخرج الأسرة أفرادًا صالحين لأنفسهم، نافعين لمجتمعهم.

كما يحفظ الإيمان الأسرة من كثير من أسباب التفكك والانهيار؛ لأنه يضع لكل فرد حقوقًا وواجبات، ويربط الجميع بمبدأ المسؤولية أمام الله. فإذا وقع خلاف، كان

الرجوع إلى شرع الله، وإذا حصل تقصير، كان باب التوبة والإصلاح مفتوحًا، وإذا اشتدت المحن، كان الصبر والاحتساب سبيلًا لتجاوزها. ومن ثم لا تبقى الأسرة أسيرة للأهواء أو الانفعالات، بل يكون لها ميزان ثابت تحتكم إليه.

ولا يعني بناء الأسرة على الإيمان أن تخلو حياتها من المشكلات، فذلك مخالف لطبيعة الحياة، بل المقصود أن الإيمان يمنح الأسرة المنهج الذي تتعامل به مع هذه المشكلات، ويزودها بالقيم التي تمنعها من التحول إلى خصومات مدمرة أو قطيعة دائمة. فالأسرة المؤمنة قد تختلف، لكنها تعرف كيف تصلح، وقد تبتلى، لكنها تعرف كيف تصبر، وقد تخطئ، لكنها تعرف كيف تتوب وتستقيم.

ومن تأمل واقع المجتمعات أدرك أن أعظم أسباب استقرار الأسر ليس كثرة المال، ولا اتساع المساكن، ولا التقدم المادي وحده، وإنما وجود أساس إيماني يجمع القلوب ويوجه السلوك. فحيث قوي الإيمان، قويت الأسرة، وحيث ضعف، كثرت أسباب النزاع والتفكك، مهما توفرت أسباب الرفاه المادي.

خلاصة الفصل

إن أول ما تستفيده الأسرة من الإسلام أنه يبنيها على أساس الإيمان بالله تعالى، فيجعل عقيدتها واحدة، وقيمها مشتركة، وغايتها مرضاة الله. وينشأ عن هذا الأساس ترابط أفرادها، واستقرار حياتهم، وحسن أداء الحقوق، والصبر على الشدائد، والتعاون على البر والتقوى، وتربية الأبناء على الأخلاق الفاضلة. فالإيمان هو الركيزة التي يقوم عليها البناء الأسري في الإسلام، ومنه تنطلق سائر التشريعات التي تحفظ الأسرة وتحقق لها السكينة والاستقرار.

الفصل الثاني

الزواج والاستقرار الأسري

جعل الإسلام الزواج الطريق المشروع لتكوين الأسرة، وأحاطه بجملة من الأحكام والآداب التي تكفل له الاستقرار والدوام. ولم ينظر إليه على أنه مجرد وسيلة لإشباع الغريزة أو تحقيق منفعة مؤقتة، بل جعله ميثاقًا غليظًا، وأساسًا لبناء أسرة مستقرة، ينشأ فيها الأبناء في بيئة يسودها الأمن، والمودة، والرحمة، وتحمل المسؤولية.

وقد امتن الله تعالى بهذه النعمة على عباده، فقال سبحانه:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:21].

فهذه الآية تلخص المقصد الأعظم من الزواج، وهو تحقيق السكن النفسي، والمودة المتبادلة، والرحمة التي تحفظ الأسرة عند اختلاف الطباع وتغير الأحوال.

ومن أعظم ما تستفيده الأسرة من تشريع الزواج أنه يوفر بيئة مستقرة تقوم على الالتزام والمسؤولية، بخلاف العلاقات العابرة التي لا تبنى على عهد ولا تحفظ حقوقًا. فالزواج في الإسلام ليس ارتباطًا مؤقتًا تحكمه الرغبات المتغيرة، وإنما عقد شرعي يترتب عليه حقوق وواجبات متبادلة، تحفظ كرامة الزوجين، وتصون حقوق الأبناء، وتحقق الاستقرار للأسرة بأكملها.

كما يحفظ الزواج الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ويصون الإنسان من الانحراف الأخلاقي، ويوجه الغريزة الجنسية إلى الطريق المشروع الذي يحفظ الكرامة والعفة. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

{يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج} متفق عليه.

فكان الزواج سببًا لحفظ الأخلاق، وصيانة المجتمع من كثير من صور الفساد.

ويحقق الزواج السكينة النفسية التي يحتاج إليها الرجل والمرأة على السواء. فالإنسان بطبعه يحتاج إلى من يؤنسه، ويشاركه أفراحه وأحزانه، ويقف معه في الشدائد، ويعينه على أعباء الحياة. ولهذا عبر القرآن بكلمة ﴿**لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا**﴾، وهي كلمة جامعة تدل على الطمأنينة، والاستقرار، والراحة النفسية، وهي من أعظم نعم الحياة الزوجية.

وجعل الإسلام المودة والرحمة أساس العلاقة بين الزوجين. فالمودة هي المحبة التي تدفع إلى الإحسان، والرحمة هي التي تبقي العلاقة قوية حتى في أوقات ضعف العاطفة أو وقوع الخلاف. ولذلك لا تقوم الأسرة في الإسلام على مجرد المشاعر، وإنما تقوم أيضًا على حسن العشرة، والتغاضي عن الزلات، والصبر، والعفو، والتعاون على تجاوز المشكلات.

كما يحقق الزواج حفظ الأنساب، وهو من المقاصد العظيمة للشريعة الإسلامية. فكل طفل يولد في ظل أسرة مستقرة يعرف نسبه، ويتمتع بحقوقه، وينشأ في كنف أبويه، مما يسهم في بناء شخصية متوازنة، ويجنب المجتمع كثيرًا من المشكلات التي تنشأ عن ضياع الأنساب أو غياب المسؤولية الأسرية.

ومن فوائد الزواج أنه يوزع المسؤوليات داخل الأسرة توزيعًا يحقق التكامل والتعاون، فلا يكون أحد الزوجين في مواجهة أعباء الحياة وحده، بل يتعاونان على إدارة شؤون الأسرة، وتربية الأبناء، ومواجهة تحديات الحياة، كلٌّ بحسب ما كلفه الله به، وبما يحقق المصلحة للأسرة كلها.

ولم يغفل الإسلام أن الحياة الزوجية قد تمر بخلافات ومواقف صعبة، ولذلك وضع وسائل عملية لعلاجها قبل أن تتفاقم. فأمر بالإصلاح، والحوار، والصبر، والاستعانة بالحكمين عند الحاجة، وجعل الطلاق آخر الحلول بعد استنفاد وسائل الإصلاح، حفاظًا على الأسرة من التفكك ما أمكن. وبهذا يتعامل الإسلام مع الواقع كما هو، فلا يفترض أن الحياة الزوجية تخلو من المشكلات، وإنما يضع منهجًا عادلًا لمعالجتها.

كما أن استقرار الأسرة لا يعود نفعه على الزوجين وحدهما، بل يمتد أثره إلى الأبناء، ثم إلى المجتمع كله. فالأسرة المستقرة تربي أبناءً أكثر طمأنينةً واتزانًا،

وتقل فيها أسباب الانحراف والعنف والتفكك، ويصبح المجتمع أكثر تماسكًا وأمنًا. ولهذا فإن العناية بالزواج ليست شأنًا فرديًا، بل هي استثمار في صلاح المجتمع كله.

ولا يعني ذلك أن كل زواج يحقق هذه المقاصد بمجرد انعقاد عقده، وإنما تتحقق هذه الثمار عندما يلتزم الزوجان بهدي الإسلام في حقوقهما وواجباتهما، ويقيمان حياتهما على المودة والرحمة والتقوى. فالتشريع يبين الطريق، أما الانتفاع الكامل به فيتوقف على حسن تطبيقه.

خلاصة الفصل

الزواج في الإسلام ليس مجرد علاقة بين رجل وامرأة، بل هو نظام متكامل لبناء أسرة مستقرة تقوم على السكن، والمودة، والرحمة، وتحمل المسؤولية. ومن خلاله تحفظ الفطرة، وتصان الأخلاق، وتحفظ الأنساب، وينشأ الأبناء في بيئة آمنة، ويزداد تماسك المجتمع. ولذلك كان تشريع الزواج من أعظم النعم التي تعود آثارها على الأسرة والأمة، وتظهر فيه حكمة الإسلام في بناء الحياة الإنسانية على أسس ثابتة من العدل والرحمة والاستقرار.

الفصل الثالث

حقوق الزوجين

لم يكتف الإسلام بالدعوة إلى الزواج، بل وضع منظومة متكاملة من الحقوق والواجبات التي تحفظ استقرار الحياة الزوجية، وتصون كرامة كل من الزوجين، وتحقق العدل بينهما. فالأسرة لا تستقيم بمجرد وجود رابطة الزواج، وإنما تستقيم عندما يعرف كل طرف ما له من حقوق، وما عليه من واجبات، ويؤديها بروح المودة والإحسان.

وقد وصف الله تعالى العلاقة بين الزوجين بأنها قائمة على **المعاشرة بالمعروف**، فقال سبحانه:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:19].

وهذه الكلمة الجامعة تشمل كل ما تعارف الناس على حسنه مما لا يخالف الشرع، من حسن الخلق، ولين الجانب، والعدل، والرحمة، والاحترام، والتعاون، والوفاء. كما قال تعالى:

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:228]،

وهي قاعدة عظيمة تدل على أن العلاقة الزوجية ليست علاقة استبداد أو استغلال، وإنما تقوم على التوازن والإنصاف، مع مراعاة ما خص الله به كلًّا من الزوجين من مسؤوليات ووظائف تحقق مصلحة الأسرة.

ومن أهم حقوق الزوجة حقها في النفقة، والسكن، والكسوة، وحسن المعاملة، وصيانة كرامتها، وعدم ظلمها أو الاعتداء عليها. وقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالنساء خيرًا، فقال:

{استوصوا بالنساء خيرًا} متفق عليه،

وقال أيضًا:

{خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي} [4]

---

[4] رواه الترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني.

فكان حسن معاملة الزوج لأهله من علامات كمال الخلق والإيمان.
وفي المقابل، جعل الإسلام للزوج حقوقًا كذلك، من أهمها أن تحفظ الزوجة دينه وعرضه وماله، وأن تعاشره بالمعروف، وتتعاون معه في بناء الأسرة، وأن تحرص على استقرار الحياة الزوجية، وأن تطيعه في المعروف، تحقيقًا للنظام الذي تقوم عليه الأسرة، بعيدًا عن التنازع والصراع.

وهذه الحقوق ليست متقابلة على سبيل المعاوضة المجردة، بحيث يمتنع أحد الزوجين عن أداء ما عليه إذا قصر الآخر، بل الأصل أن يسابق كل منهما إلى أداء ما عليه ابتغاء مرضاة الله، وأن يكون الإحسان هو الأصل في العلاقة، لا مجرد المطالبة بالحقوق.

ومن أعظم ما يميز التشريع الإسلامي أنه لا يبني الحياة الزوجية على الحقوق القانونية وحدها، بل يغرس قبل ذلك قيم الرحمة، والإحسان، والعفو، والصبر، والتغافل عن الزلات. فالحياة اليومية لا تستقيم إذا وقف كل طرف عند أصغر تقصير، وإنما تحتاج إلى سعة صدر، وتقدير للظروف، وحرص على دوام المودة.

وقد أرشد القرآن إلى هذا المعنى بقوله تعالى:

﴿وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة:237].

فهذه الآية ليست خاصة بحالة معينة فحسب، بل تقرر خلقًا عظيمًا ينبغي أن يسود العلاقات الإنسانية عامة، والعلاقة الزوجية خاصة؛ وهو ألا ينسى كل من الزوجين ما قدمه الآخر من خير، وألا تمحو لحظة غضب سنوات من المعروف والإحسان.

كما وضع الإسلام وسائل لمعالجة الخلافات الزوجية قبل أن تتفاقم، فدعا إلى الحوار الهادئ، والنصح المتبادل، والإصلاح، والاستعانة بأهل الحكمة عند الحاجة، فقال تعالى:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء:35].

وهذا يدل على أن الإسلام يهدف إلى علاج المشكلات في بدايتها، والمحافظة على كيان الأسرة ما أمكن.

ومن ثمار الالتزام بهذه الحقوق أن تسود الثقة بين الزوجين، ويشعر كل واحد منهما بالأمن والاحترام والتقدير، ويشب الأبناء في بيئة مستقرة، فيتعلمون من والديهم معاني العدل، والرحمة، وتحمل المسؤولية، والوفاء بالعهود. أما إذا ضاعت الحقوق، أو ساد الظلم والأنانية، انعكس ذلك على الأسرة كلها، وأدى إلى النزاع والتفكك.

ولذلك فإن نجاح الحياة الزوجية لا يقاس بخلوها من الخلافات، فهذا أمر لا يكاد يسلم منه بيت، وإنما يقاس بقدرة الزوجين على إدارة تلك الخلافات وفق القيم التي أرساها الإسلام، بحيث تبقى المودة والاحترام أصل العلاقة، ويظل الإصلاح هو الهدف عند وقوع التقصير.

ومن تأمل أحكام الإسلام في حقوق الزوجين وجد أنها لا ترمي إلى تحقيق مصلحة أحد الطرفين على حساب الآخر، بل تهدف إلى بناء أسرة متماسكة، يشعر فيها كل فرد بالأمن والكرامة، ويؤدي ما عليه قبل أن يطالب بما له. وبهذا تتحقق السكينة التي جعلها الله من أعظم مقاصد الزواج.

خلاصة الفصل

أقام الإسلام العلاقة بين الزوجين على منظومة متوازنة من الحقوق والواجبات، أساسها العدل، والمعروف، والرحمة، والإحسان. فحفظ لكل من الزوجين كرامته وحقوقه، ودعاهما إلى التعاون، وحسن العشرة، والتغاضي عن الزلات، ومعالجة الخلافات بالحكمة والإصلاح. وإذا التزم الزوجان بهذه المبادئ، تحققت السكينة، واستقرت الأسرة، ونشأ الأبناء في بيئة صالحة، وكان ذلك من أعظم ما تجنيه الأسرة من هدي الإسلام.

الفصل الرابع

تربية الأبناء

من أعظم النعم التي يمتن الله بها على الإنسان نعمة الذرية، ومن أعظم المسؤوليات التي يحملها الوالدان مسؤولية تربيتها. ولذلك لم ينظر الإسلام إلى الأبناء على أنهم امتداد للنسب فحسب، أو مصدر للفرح في الحياة الدنيا، بل جعل تربيتهم أمانةً عظيمة، يسأل عنها الوالدان أمام الله تعالى، ويترتب عليها صلاح الأسرة والمجتمع والأمة.

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم:6]،

وقال النبي صلى الله عليه وسلم:

{كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته} متفق عليه.

فهذه النصوص تبين أن التربية ليست أمرًا اختياريًا، وإنما هي واجب شرعي ومسؤولية مستمرة.

وتبدأ التربية في الإسلام قبل أن ينطق الطفل أو يميز، بل قبل أن يولد، وذلك بحسن اختيار الأم والبيئة الصالحة التي ينشأ فيها، ثم حسن اختيار الاسم ذو المعنى الجميل، ثم تستمر بتعليمه العقيدة الصحيحة، وتعريفه بربه، وغرس محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم في قلبه، حتى يكون الإيمان هو الأساس الذي تبنى عليه شخصيته كلها. فالتربية الإيمانية هي الأصل الذي تنبثق منه بقية جوانب التربية.

كما يعتني الإسلام بتربية الأبناء على الأخلاق الفاضلة، كالصدق، والأمانة، والحياء، والرحمة، والعدل، والتواضع، والإحسان إلى الناس. وهذه الأخلاق ليست مجرد آداب اجتماعية، بل هي قيم شرعية يتقرب بها المسلم إلى الله، وتنعكس آثارها على جميع علاقاته في الحياة.

ومن وسائل التربية التي أكد عليها الإسلام القدوة الحسنة. فالطفل يتعلم بما يراه أكثر مما يتعلم بما يسمعه، ولذلك كان سلوك الوالدين من أعظم المؤثرات في تكوين شخصيته. فإذا رأى الصدق، والرحمة، واحترام الآخرين، والالتزام بالعبادة، نشأ على هذه المعاني، وإذا رأى التناقض بين القول والعمل، ضعفت آثار التوجيه مهما كثرت النصائح.

كما دعا الإسلام إلى الجمع بين الرحمة والحزم في التربية، فلا تقوم على القسوة التي تورث الخوف والانكسار، ولا على التساهل الذي يضيع الحدود ويضعف المسؤولية، وإنما تقوم على الحكمة، ومراعاة مراحل النمو، والتدرج في التعليم والتأديب، مع المحافظة على كرامة الطفل واحترام إنسانيته.

ولم يغفل الإسلام جانب التربية العقلية، فدعا إلى تعليم الأبناء العلم النافع، وتنمية عقولهم، وتعويدهم على التفكير الصحيح، واحترام الحق، والبحث عن الدليل، وحسن الاستفادة من التجارب. فالمؤمن القوي في علمه وفكره أقدر على القيام بواجباته، وأحسن في خدمة مجتمعه.

كما يحرص الإسلام على تنمية شخصية الأبناء، وتعويدهم على تحمل المسؤولية منذ الصغر، وإشراكهم فيما يناسب أعمارهم من الأعمال والواجبات، حتى ينشؤوا قادرين على الاعتماد على أنفسهم، وإدارة شؤون حياتهم، وخدمة مجتمعهم.

ومن الجوانب المهمة في التربية الإسلامية غرس احترام حقوق الآخرين، والرحمة بالضعفاء، وحب الخير للناس، والوفاء بالعهود، والمحافظة على الممتلكات العامة والخاصة، واحترام النظام. فبهذه القيم يتحول الابن الصالح إلى مواطن صالح، يسهم في استقرار المجتمع ونهضته.

كما أن الإسلام يوجه الوالدين إلى الدعاء لأبنائهم، والاستعانة بالله في صلاحهم، مع بذل الأسباب المشروعة في تربيتهم، لأن الهداية بيد الله تعالى، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء. ولهذا امتلأ القرآن الكريم بأدعية الأنبياء والصالحين لذرياتهم، مما يدل على أهمية الجمع بين التربية العملية والافتقار إلى الله.

وإذا أهملت التربية، فإن آثار ذلك لا تقف عند حدود الأسرة، بل تمتد إلى المجتمع كله. فضعف التربية يؤدي إلى انتشار الانحراف، والعقوق، والجريمة، وضياع القيم، وتفكك الروابط الاجتماعية. أما إذا صلحت التربية، خرج من الأسرة أفراد صالحون، يحملون الخير لأنفسهم ولمجتمعهم، ويكونون لبنات في بناء أمة قوية مستقيمة.

ومن تأمل تشريعات الإسلام المتعلقة بالأبناء وجد أنها لا تهدف إلى مجرد إعدادهم للحياة الدنيا، بل إلى إعدادهم ليكونوا عبادًا صالحين، يجمعون بين الإيمان، والعلم، والأخلاق، والعمل النافع. وبهذا تتحقق مصلحة الأبناء أنفسهم، وتتحقق مصلحة الأسرة، ثم ينعكس ذلك خيرًا على المجتمع كله.

خلاصة الفصل

جعل الإسلام تربية الأبناء من أعظم مسؤوليات الوالدين، وأقامها على أسس متكاملة تشمل التربية الإيمانية، والأخلاقية، والعقلية، والنفسية، والسلوكية. كما أكد أهمية القدوة الحسنة، والتوازن بين الرحمة والحزم، وتعويد الأبناء على تحمل المسؤولية واحترام حقوق الآخرين. وبذلك يخرج من الأسرة جيل صالح، ينتفع بنفسه، ويصلح أسرته، ويسهم في بناء مجتمع متماسك، وهو من أعظم الثمار التي تجنيها الأسرة من هدي الإسلام.

الفصل الخامس

بر الوالدين وصلة الأرحام

لم يجعل الإسلام الأسرة مقصورة على العلاقة بين الزوجين والأبناء، بل وسع دائرتها لتشمل الوالدين، والأجداد، والأقارب، وسائر ذوي الأرحام، وجعل المحافظة على هذه الروابط من أعظم أسباب قوة الأسرة وتماسك المجتمع. فكلما كانت صلات القرابة أوثق، كان التعاون أكثر، والرحمة أوسع، والتكافل أقوى.

وقد قرن الله تعالى بر الوالدين بتوحيده في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، فقال سبحانه:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء:23]،

وقال تعالى:

﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان:14].

وهذا الاقتران يدل على عظم منزلة الوالدين، وأن الإحسان إليهما من أجلِّ القربات بعد حق الله تعالى.

وبر الوالدين لا يقتصر على الإنفاق عليهما عند الحاجة، بل يشمل حسن الصحبة، ولين القول، واحترامهما، وخدمتهما، والدعاء لهما، وإدخال السرور عليهما، والصبر على ما قد يصدر منهما عند الكبر أو المرض. ولذلك نهى القرآن حتى عن أدنى كلمة تضجر، فقال سبحانه:

﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء:23]

ولا يسقط هذا الحق إذا كان الوالدان غير مسلمين؛ فقد أمر الله بالإحسان إليهما، وإن بذلا جهدهما في دعوة ولدهما إلى الكفر، فقال تعالى:

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:15]،

فنهى عن طاعتهما في المعصية، وأمر مع ذلك بحسن صحبتهما في الدنيا.

وقد جسد النبي ﷺ هذا المعنى عمليًا؛ إذ استأذنته أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما في صلة أمها وكانت مشركة، فقال لها: **{صِلِي أُمَّكِ}** متفق عليه.

ومن أعظم ما يجنيه الإنسان من بر والديه أنه يعيش في أسرة يسودها الوفاء والامتنان، فلا ينسى فضل من أحسن إليه ورباه صغيرًا. كما أن الأبناء الذين يرون آباءهم يبرون أجدادهم، يتعلمون هذا الخلق عمليًا، فينشأ جيل يرد الجميل ويحفظ الحقوق، فتستمر هذه القيم عبر الأجيال.

ولم يقتصر الإسلام على الوالدين، بل أمر بصلة الأرحام جميعًا، فقال تعالى:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء:1]،

وقال النبي صلى الله عليه وسلم:

{من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه} متفق عليه،

وقال أيضًا:

{ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها}
رواه البخاري.

وتشمل صلة الرحم صورًا كثيرة، منها الزيارة، والسؤال، والإحسان، والمواساة، وقضاء الحاجات، والإصلاح بين الأقارب، والوقوف معهم في الشدائد، والدعاء لهم، وإظهار المحبة والاحترام. وليس المقصود صورة واحدة من الصلة، بل كل ما يعد في العرف إحسانًا إلى الرحم، ما لم يخالف الشرع.

ومن أعظم فوائد صلة الرحم أنها تقوي شبكة العلاقات الأسرية، فتكون الأسرة الكبيرة مصدرًا للعون عند الأزمات، وميدانًا لتبادل الخبرات، وتربية الأبناء على التعاون والتراحم. كما تقل بها مشاعر العزلة، ويزداد الإحساس بالانتماء، ويجد الإنسان من أقاربه سندًا نفسيًا واجتماعيًا في مختلف مراحل حياته.

كما تسهم صلة الرحم في الحد من النزاعات والخلافات، لأن التواصل المستمر يزيل كثيرًا من أسباب سوء الظن وسوء الفهم، ويفتح أبواب الصلح والعفو. وإذا وقع

خلاف، كان الأقارب أحرص على معالجته، حفاظًا على الرابطة التي أمر الله بحفظها.

وفي المقابل، حذر الإسلام من قطيعة الرحم، لما يترتب عليها من آثار سيئة على الأفراد والأسر والمجتمعات. فالقطيعة تورث العداوة، وتفرق الأسر، وتضعف روح التعاون، وقد توعد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم القاطعين بالوعيد الشديد، لما في فعلهم من إفساد للعلاقات التي أمر الله بوصلها.

ولا يعني بر الوالدين وصلة الأرحام أن يطيع الإنسان أقاربه في كل ما يأمرون به، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. كما لا تمنع الخلافات أو تقصير بعض الأقارب من الاستمرار في الإحسان إليهم بحسب الاستطاعة، لأن الصلة في الإسلام عبادة تقوم على أداء الواجب، لا على انتظار المعاملة بالمثل.

ومن تأمل هذه التشريعات وجد أنها لا تبني أسرة صغيرة فحسب، بل تبني أسرة ممتدة مترابطة، يشعر أفرادها بالمسؤولية المتبادلة، ويتعاونون في الخير، ويتوارثون القيم، ويواجهون التحديات بروح الجماعة. وهذا من أعظم أسباب استقرار المجتمعات، لأن المجتمع القوي يبدأ بأسرة قوية، والأسرة القوية تمتد جذورها في رحم متواصل، وقلوب متآلفة.

خلاصة الفصل

جعل الإسلام بر الوالدين وصلة الأرحام من أعظم دعائم الأسرة، لما يحققانه من الوفاء، والرحمة، والتعاون، والتكافل، واستمرار الروابط بين الأجيال. فبهما تحفظ الأسرة الكبيرة تماسكها، ويجد أفرادها العون في الشدائد، وتنشأ الأجيال على احترام الحقوق ورد الجميل. ولذلك كان بر الوالدين وصلة الرحم من أهم ما تستفيده الأسرة من هدي الإسلام، ومن أقوى أسباب استقرارها واستمرارها.

الفصل السادس

النفقة والميراث والتكافل الأسري

من خصائص الإسلام أنه لم يكتف بتقرير المبادئ الأخلاقية التي تقوم عليها الأسرة، بل وضع تشريعات مالية دقيقة تحفظ استقرارها، وتضمن أداء الحقوق، وتمنع أسباب النزاع والخصومة. فالأسرة لا تقوم على المحبة وحدها، بل تحتاج أيضًا إلى نظام عادل ينظم الجوانب المالية، ويكفل لكل فرد حقه، ويحقق التعاون والتكافل بين أفرادها.

ومن أهم هذه التشريعات النفقة، فقد أوجب الإسلام على من وجبت عليه نفقة زوجته وأولاده ومن تلزمه نفقتهم أن يقوم بذلك على الوجه الذي يحقق الكفاية بالمعروف، فقال تعالى:

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق:7].

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:

{كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت} رواه أبو داود وغيره.

ولم يجعل الإسلام النفقة منةً أو تفضلًا، بل جعلها حقًا ثابتًا، يترتب عليه استقرار الأسرة وصيانة كرامة أفرادها. فالزوجة تنال حقها في النفقة، والأبناء ينشؤون في كنف من يتحمل مسؤوليتهم، ويجد كبار السن والعاجزون من أقاربهم من يكفل حاجاتهم عند وجوب ذلك. وبهذا يغرس الإسلام في النفوس معنى المسؤولية، ويحول الأسرة إلى بيئة يتعاون أفرادها على تحمل أعباء الحياة.

كما شرع الإسلام نظام الميراث، وهو من أدق الأنظمة المالية في الشرائع، إذ بين القرآن الكريم أنصبة الورثة بيانًا مفصلًا، فقال سبحانه بعد ذكر الفرائض:

﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء:11]،

وقال تعالى:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ [النساء:13].

وهذا التفصيل يدل على عناية الشريعة بحفظ الحقوق، ومنع التنازع الذي قد يقع بعد وفاة الإنسان.

ويمتاز نظام الميراث في الإسلام بأنه يقوم على العدل الذي يراعي درجات القرابة، والمسؤوليات المالية، والالتزامات الشرعية، وليس على المساواة المجردة في جميع الأحوال. فقد تختلف الأنصبة باختلاف صلة الوارث بالميت، أو باختلاف ما أوجبه الشرع عليه من واجبات مالية، ولذلك فإن أحكام الميراث لا يمكن فهمها فهمًا صحيحًا إلا بالنظر إلى النظام المالي الإسلامي كله، لا إلى مسألة واحدة بمعزل عن غيرها.

ومن أعظم فوائد نظام الميراث أنه يمنع احتكار الثروة في يد شخص واحد أو فئة محدودة، ويؤدي إلى توزيعها بين الورثة المستحقين، مما يسهم في تحقيق قدر من التكافل والاستقرار داخل الأسرة، ويحفظ حقوق النساء، والأطفال، وكبار السن، وسائر من جعل لهم الشرع نصيبًا معلومًا.

ولم يقتصر الإسلام على النفقة والميراث، بل دعا إلى التكافل الأسري في صور متعددة، كالإحسان إلى الأقارب، ومساعدة المحتاج منهم، والوقوف معهم في أوقات المرض، والفقر، والشدائد، وقضاء ديون المعسرين عند القدرة، ورعاية اليتامى والأرامل وكبار السن. وقد قال تعالى:

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ [الإسراء:26]،

فجعل للأقارب حقًا ينبغي أداؤه، بحسب ما تقتضيه الأحوال وأحكام الشريعة.

وهذا التكافل يحقق للأسرة قوة داخلية تجعلها أقل تعرضًا للتفكك عند الأزمات الاقتصادية أو الاجتماعية. فحين يشعر كل فرد أن له من يقف معه عند الحاجة، تزداد الثقة بين أفراد الأسرة، وتقوى روابطها، وتقل آثار الفقر والعوز، وينمو الإحساس بالمسؤولية المشتركة.

كما يسهم النظام المالي الأسري في الإسلام في الحد من كثير من أسباب الخصومات، لأن الحقوق محددة، والواجبات معلومة، والأحكام مبنية على العدل، فلا يترك المجال للأهواء أو المزاج الشخصي في تقرير الحقوق المالية الأساسية. وكلما التزم أفراد الأسرة بهذه الأحكام، قل النزاع، وساد الرضا، وحفظت العلاقات الأسرية.

ولا يعني ذلك أن الإسلام يمنع الإحسان أو التنازل عن بعض الحقوق إذا كان ذلك برضا صاحبه ومن غير ظلم، بل إنه يحث على العفو والفضل والإيثار، مع المحافظة على الحقوق التي شرعها الله. فالأصل هو العدل، ويأتي الإحسان ليزيد الأسرة تماسكًا ومودة، لا ليكون وسيلة لإهدار الحقوق أو استغلال الضعفاء.

ومن تأمل هذه التشريعات وجد أنها تشكل نظامًا متكاملًا يحفظ الأسرة من الداخل؛ فهي توفر أسباب العيش الكريم، وتصون الحقوق المالية، وتغرس روح التعاون، وتمنع كثيرًا من أسباب النزاع. ولذلك لم يكن المقصود من هذه الأحكام مجرد تنظيم الأموال، بل بناء أسرة يسودها العدل، ويطمئن كل فرد فيها إلى أن حقه محفوظ، وأن مسؤوليته واضحة.

خلاصة الفصل

جعل الإسلام النفقة، والميراث، والتكافل الأسري ركائز أساسية لاستقرار الأسرة وحفظ حقوق أفرادها. فأوجب النفقة على من تلزمه، وفصل أنصبة الميراث بما يحقق العدل، ودعا إلى التكافل والإحسان بين الأقارب، ليعيش أفراد الأسرة في تعاون وأمان. وبهذه التشريعات تتحقق حماية الضعفاء، وتقل الخصومات، وتزداد الروابط الأسرية قوة، فتكون الأسرة أكثر استقرارًا وقدرة على أداء رسالتها في بناء المجتمع.

خاتمة الباب الثالث

بعد أن تناول الباب الأول أثر الإسلام في بناء الفرد، وبيَّن الباب الثاني أثر العبادات في تزكية الإنسان وتقويم حياته، جاء هذا الباب ليبرز أثرًا آخر من أعظم آثار الإسلام، وهو بناء الأسرة؛ لأنها الحاضنة الأولى للإنسان، والمدرسة التي تتشكل فيها شخصيته، واللبنة التي يقوم عليها المجتمع كله.

وقد تبين من خلال فصول هذا الباب أن الإسلام لم يترك الأسرة تسير وفق الأهواء أو الأعراف المتغيرة، بل وضع لها منهجًا متكاملًا يبدأ ببنائها على الإيمان، ثم ينظم العلاقة بين الزوجين، ويرسم أصول تربية الأبناء، ويؤكد مكانة الوالدين وذوي الأرحام، ويقرر من الأحكام المالية ما يحفظ الحقوق ويحقق التكافل والاستقرار.

ومن تأمل هذه التشريعات وجد أنها لا تعالج جانبًا واحدًا من الحياة الأسرية، بل تتناول الأسرة في جميع مراحلها؛ من نشأتها بالزواج، إلى استقرارها بحسن العشرة، إلى استمرارها بتربية الأبناء، إلى تماسكها ببر الوالدين وصلة الأرحام، إلى حفظها بالنفقة والميراث والتكافل. وبذلك تتكامل عناصر الأسرة القوية القادرة على أداء رسالتها.

كما يتبين أن مقصود الإسلام من هذه التشريعات ليس مجرد تنظيم العلاقات الأسرية، بل بناء بيت يسوده الإيمان، وتحكمه الرحمة، ويقوم على العدل، ويحفظ فيه كل فرد حقوقه، ويؤدي واجباته. فالأسرة في التصور الإسلامي ليست تجمعًا لأشخاص يعيشون تحت سقف واحد، وإنما رابطة تقوم على المسؤولية المتبادلة، والتعاون على البر والتقوى، وحسن المعاشرة، والوفاء بالحقوق.

ومن ثمار هذا البناء أن تنشأ الأجيال في بيئة مستقرة وآمنة، يتعلم فيها الأبناء معاني الإيمان، والصدق، والأمانة، والرحمة، واحترام الحقوق، وتحمل المسؤولية. فإذا صلحت الأسرة، كان ذلك أساسًا لصلاح المجتمع؛ لأن المجتمع ليس إلا مجموعة من الأسر، وقوته من قوتها، وضعفه من ضعفها.

ولهذا كانت عناية الإسلام بالأسرة عنايةً ببناء المجتمع كله. فكل حكم شرعه في شأن الأسرة، وكل خلق دعا إليه بين أفرادها، وكل حق قرره، إنما يسهم في تكوين

مجتمع أكثر استقرارًا، وأقوى تماسكًا، وأقدر على مواجهة التحديات. فالأسرة الصالحة لا تنفع أفرادها وحدهم، بل يمتد أثرها إلى كل من يعيش في المجتمع.

ومن هنا ينتقل الكتاب إلى الباب الرابع، ليتناول ما يحققه الإسلام من مصالح للمجتمع بأسره، وكيف تسهم مبادئه وتشريعاته في إقامة العدل، وحفظ الأمن، ونشر التكافل، وصيانة الحقوق، وبناء مجتمع يقوم على التعاون والإحسان، فتتسع دائرة الخير من الفرد إلى الأسرة، ومن الأسرة إلى المجتمع، ثم إلى الإنسانية كلها.

الباب الرابع

ماذا يستفيد المجتمع من الإسلام؟

الفصل الأول
الأمن والاستقرار في المجتمع

الفصل الثاني
العدل أساس قوة المجتمع واستقراره

الفصل الثالث
حفظ الأموال والحقوق وصيانة المصالح العامة

الفصل الرابع
الأخلاق العامة وأثرها في بناء المجتمع

الفصل الخامس
التكافل الاجتماعي ورعاية الضعفاء والمحتاجين

الفصل السادس
القضاء العادل وفض المنازعات وحماية الحقوق

الفصل السابع
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودوره في إصلاح المجتمع

الفصل الأول

الأمن والاستقرار في المجتمع

يعد الأمن والاستقرار من أعظم النعم التي تقوم عليها حياة الأفراد والمجتمعات، فلا تستقيم حياة الناس، ولا تزدهر الحضارات، ولا تنمو العلوم والاقتصاد، ولا تستقر الأسر، إلا إذا شعر الإنسان بالأمن على دينه، ونفسه، وعقله، ونسله، وماله، وبالتالي حقوقه وكرامته. ولهذا كانت نعمة الأمن من أجلِّ النعم التي امتن الله بها على عباده، فقال سبحانه:

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش:4]،

فجمع بين نعمة الرزق ونعمة الأمن، لأن الحياة لا تستقيم بفقد إحداهما.

ولم ينظر الإسلام إلى الأمن على أنه مسؤولية الأجهزة الحاكمة أو العقوبات وحدها، بل جعله ثمرة منظومة متكاملة تبدأ من عقيدة الإنسان، وتمر بأخلاقه وسلوكه، ثم تتجسد في التشريعات التي تنظم حياة المجتمع. ولذلك كان الأمن في الإسلام نتيجة طبيعية لاجتماع الإيمان، والعدل، والأخلاق، وحفظ الحقوق.

ويبدأ الأمن الحقيقي من أمن الإنسان في نفسه وقلبه؛ فحين يؤمن بالله تعالى، ويوقن برقابته، ويعلم أنه مسؤول عن أعماله، ينشأ لديه وازع داخلي يمنعه من الظلم والعدوان، حتى في المواضع التي لا يراه فيها أحد من الناس. وهذا الضمير الحي هو أول حصون المجتمع، لأنه يجعل الالتزام بالقانون نابعًا من قناعة وإيمان، لا من مجرد الخوف من العقوبة.

كما حرم الإسلام كل صور الاعتداء على الأنفس، وجعل حفظ النفس من أعظم مقاصد الشريعة، فقال تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء:33]،

وقال سبحانه:

﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:32].

فصيانة حياة الإنسان أصل من أصول الشريعة، وبدونه لا يتحقق الأمن ولا تستقر المجتمعات.

ولم يقتصر الإسلام على حماية النفس، بل حفظ الأموال، والأعراض، والحقوق، وجعل الاعتداء عليها من كبائر الذنوب. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع:

{إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا} متفق عليه.

وبذلك يشعر كل فرد أن حياته وماله وكرامته مصونة، وأن المجتمع لا يبيح الاعتداء عليها.

كما شرع الإسلام من الأحكام والعقوبات ما يردع المعتدين، ويحمي المجتمع من انتشار الجريمة. ولم يكن المقصود من هذه العقوبات مجرد معاقبة الجاني، بل حماية المجتمع كله، وصيانة الحقوق، ومنع تكرار الجرائم، حتى يعيش الناس في أمن وطمأنينة. فالعقوبة في الإسلام ليست انتقامًا، وإنما وسيلة لتحقيق العدل وحماية المجتمع.

ومن أسباب الأمن التي أكدها الإسلام نشر الأخلاق الفاضلة بين الناس، فالصدق، والأمانة، والوفاء، والرحمة، واحترام الحقوق، وحسن الجوار، كلها قيم تقلل أسباب النزاع، وتبني الثقة بين أفراد المجتمع. وكلما ارتفعت الأخلاق، انخفضت الحاجة إلى وسائل الردع؛ لأن كثيرًا من صور الاعتداء تنشأ من ضعف الوازع الأخلاقي.

كما دعا الإسلام إلى الوفاء بالعقود والعهود، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة:1].

فالوفاء بالالتزامات من أهم أسباب استقرار الحياة الاجتماعية والاقتصادية، لأنه يزرع الثقة بين الناس، ويجعل التعامل بينهم قائمًا على الاطمئنان لا على الشك والخوف.

ومن مظاهر عناية الإسلام بالأمن تحريم كل ما يؤدي إلى إثارة الفوضى أو نشر الذعر بين الناس بغير حق، كما نهى عن الإشاعات الكاذبة، والاتهامات الباطلة، والاعتداء على الأبرياء، لما في ذلك من زعزعة للأمن وإفساد للعلاقات الاجتماعية. فالأمن في الإسلام لا يقتصر على سلامة الأبدان، بل يشمل الأمن النفسي والاجتماعي والفكري.

كما أن الأمن الذي يدعو إليه الإسلام لا يقتصر على المسلمين وحدهم، بل يشمل كل من يعيش في المجتمع ممن له حق الأمان، ولذلك حفظ الإسلام حقوق غير المسلمين، ونهى عن ظلمهم أو الاعتداء عليهم، وأوجب الوفاء بالعهود والمواثيق. وهذا يرسخ الاستقرار، ويجعل المجتمع قائمًا على العدل، لا على التمييز أو العدوان.

ومن أعظم آثار الأمن أن يطمئن الناس على أنفسهم وأموالهم، فيتفرغون للعمل، وطلب العلم، والعبادة، والإنتاج، وبناء الحضارة. أما إذا فقد الأمن، تعطلت المصالح، وانتشر الخوف، وتوقفت حركة التنمية، واضطربت حياة الناس مهما بلغت ثرواتهم أو تقدمهم المادي.

ومن هنا يتبين أن الأمن في الإسلام ليس هدفًا مستقلًا، بل هو ثمرة منظومة متكاملة من الإيمان، والأخلاق، والعدل، وصيانة الحقوق، وإقامة المسؤولية. وكلما التزم المجتمع بهذه المبادئ، ازداد أمنًا واستقرارًا، وكلما ضعف التزامه بها، كثرت أسباب الاضطراب والخوف.

خلاصة الفصل

جعل الإسلام الأمن والاستقرار من أعظم مقومات الحياة الإنسانية، وأقامهما على أسس متكاملة تشمل الإيمان، وصيانة الأنفس والأموال والأعراض، ونشر الأخلاق الفاضلة، والوفاء بالعهود، وإقامة العدل، وردع المعتدين. وبهذه المنظومة يعيش الناس في طمأنينة، ويزدهر العلم والعمل والاقتصاد، وتستقر الأسر، ويقوى المجتمع. ولذلك كان الأمن من أعظم ما يستفيده المجتمع من هدي الإسلام، ومن أبرز مظاهر رحمته وحكمته في تنظيم حياة البشر.

الفصل الثاني

العدل أساس قوة المجتمع واستقراره

يعد العدل من أعظم المبادئ التي جاء بها الإسلام، بل هو الأساس الذي تقوم عليه حياة الأمم واستقرار المجتمعات. فلا يمكن أن يتحقق أمن دائم، ولا أن تحفظ الحقوق، ولا أن تزدهر الحياة، إذا غاب العدل أو حل محله الظلم. ولهذا أمر الله تعالى بالعدل أمرًا عامًا يشمل جميع الناس، فقال سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل:90]،

وجعل إقامة العدل من أعظم مقاصد الرسالات، فقال تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد:25].

ولم يجعل الإسلام العدل خلقًا مستحبًا فحسب، بل أوجبه في جميع شؤون الحياة، مع القريب والبعيد، والصديق والعدو، والغني والفقير، والحاكم والمحكوم. قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة:8].

فالعداوة لا تبرر الظلم، كما أن المحبة لا تبرر المحاباة، وإنما يبقى العدل واجبًا في جميع الأحوال.

ومن خصائص العدل في الإسلام أنه يقوم على المساواة بين الناس أمام أحكام الشرع، فلا يفضل غني على فقير، ولا صاحب جاه على ضعيف، ولا قريب على بعيد. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

{إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد} ثم قال: **{وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها}** متفق عليه.

فبهذا المبدأ تزول أسباب التمييز، ويشعر كل فرد أن حقه مصون، وأن الجميع سواء أمام العدالة.

كما يظهر العدل في الإسلام في الحكم بين الناس، والشهادة، والبيع والشراء، وسائر المعاملات. فأمر الله بأداء الأمانات إلى أهلها، فقال سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء:58].

وهذا يدل على أن إقامة العدل ليست مقصورة على القضاء، بل تشمل كل مسؤولية يتحملها الإنسان.

ولم يقتصر الإسلام على تحقيق العدل بين المسلمين، بل أمر بالعدل مع غير المسلمين أيضًا، ما داموا غير محاربين، فقال تعالى:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:8].

فالعدل في الإسلام مبدأ إنساني عام، لا يتغير باختلاف الدين أو الجنس أو اللون أو النسب.

ومن ثمار العدل أنه يزرع الثقة بين أفراد المجتمع، ويطمئن الناس إلى أن حقوقهم محفوظة، وأن المظلوم يستطيع أن ينال حقه، وأن الظالم لن يفلت من المساءلة. فإذا شعر الناس بذلك، ازداد احترامهم للنظام، وقلَّت دوافع الانتقام الشخصي، واستقرت المعاملات، وقويت الروابط الاجتماعية.

كما يسهم العدل في ازدهار الحياة الاقتصادية، لأن الناس يقدمون على العمل والاستثمار والتجارة وهم مطمئنون إلى حماية حقوقهم، وإلى أن العقود محترمة، وأن الاعتداء على الأموال أو الحقوق لا يمر دون محاسبة. ولهذا كان العدل سببًا من أسباب قوة الأمم واستمرار عمرانها.

وفي المقابل، يعد الظلم من أعظم أسباب انهيار المجتمعات، لأنه يولد الأحقاد، ويفقد الناس الثقة، وينشر الفساد، ويؤدي إلى اضطراب الأمن، وتعطل المصالح. وقد حرم الله الظلم على نفسه، وجعله محرمًا بين عباده، ففي الحديث القدسي:

{يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا}
رواه مسلم.

ومن تأمل تشريعات الإسلام وجد أنها كلها تدور حول تحقيق العدل ودفع الظلم؛ فالعبادات تزكي النفوس، والأخلاق تهذب السلوك، والقضاء يحفظ الحقوق، والعقوبات تردع المعتدين، والأنظمة المالية تمنع أكل أموال الناس بالباطل. وهكذا تتكامل أحكام الشريعة لتقيم مجتمعًا يسوده العدل في جميع جوانب الحياة.

خلاصة الفصل

جعل الإسلام العدل أساسًا لقيام المجتمع واستقراره، وأوجب الالتزام به مع جميع الناس دون محاباة أو تمييز، وربط به حفظ الحقوق، واستقرار المعاملات، وقوة الدولة، وطمأنينة الأفراد. وكلما ساد العدل، ازداد المجتمع أمنًا وتماسكًا وازدهارًا، وكلما انتشر الظلم، ضعفت الثقة، وكثرت الخصومات، وفسدت أحوال الناس. ولذلك كان العدل من أعظم ما يقدمه الإسلام للمجتمع، ومن أبرز مظاهر حكمته ورحمته.

الفصل الثالث

حفظ الأموال والحقوق وصيانة المصالح العامة

جاء الإسلام بحفظ الضرورات التي لا تستقيم حياة الناس إلا بها، ومن أعظمها حفظ الأموال والحقوق. فالمال ضرورة تقوم بها معايش الناس، وتتحقق به مصالحهم، وتنتظم به شؤون الأسرة والمجتمع والدولة. وإذا لم يكن المال مصونًا، والحقوق محفوظة، انتشرت الفوضى، وتعطلت المعاملات، وضعفت الثقة بين الناس، وفسدت الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

ولذلك قرر الإسلام أن أموال الناس محترمة، لا يجوز الاعتداء عليها بغير حق، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء:29].

فالأصل في التعاملات المالية أن تقوم على الرضا، والعدل، والشفافية، وأن تخلو من الظلم والغش والخداع.

كما شدد الإسلام في تحريم السرقة، والغصب، والاختلاس، وخيانة الأمانة، والرشوة، والربا، والغش، والقمار، وسائر صور أكل أموال الناس بالباطل. فهذه الأعمال لا تضر أصحاب الأموال وحدهم، بل تهدم الثقة التي يقوم عليها المجتمع، وتؤدي إلى اضطراب الأسواق، وتعطيل الاستثمار، وإشاعة الفساد المالي.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

{من غش فليس مني} رواه مسلم،

وقال أيضًا:

{أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك} رواه أبو داود والترمذي.

فربط الإسلام بين سلامة المعاملات وسلامة الأخلاق، لأن الاقتصاد السليم لا يقوم على القوانين وحدها، وإنما يحتاج كذلك إلى الأمانة والصدق والوفاء.

ولم يحفظ الإسلام الأموال فحسب، بل حفظ جميع الحقوق التي تقوم عليها حياة الناس، سواء كانت حقوقًا شخصية، أو أسرية، أو مالية، أو اجتماعية، أو وظيفية، أو عامة. فأوجب أداء الأمانات، والوفاء بالعقود، واحترام الملكيات، ورد المظالم إلى أهلها، وجعل الاعتداء على الحقوق ظلمًا يأثم صاحبه، ويستوجب الضمان أو العقوبة بحسب حاله.

كما اعتنى الإسلام بحماية الملكية الخاصة، فأقر للإنسان حقه في امتلاك المال واكتسابه بالطرق المشروعة، والتصرف فيه ضمن حدود الشرع، ومنع الاعتداء عليه أو مصادرته بغير حق. وفي الوقت نفسه، أكد أن المال أمانة استخلف الله الإنسان فيها، فلا يجوز استعماله فيما يضر الفرد أو المجتمع، ولا في نشر الفساد أو الظلم.

ولم يغفل الإسلام حماية الأموال العامة، لأنها ملك للمجتمع كله، ينتفع بها جميع أفراده. ولهذا حرم الاعتداء على المال العام، أو إهداره، أو استغلال الوظيفة لتحقيق مصالح شخصية، لأن ذلك يعد خيانة للأمانة وإضرارًا بالمصلحة العامة. فالمرافق العامة، وموارد الدولة، وأموال المؤسسات، كلها حقوق يجب المحافظة عليها كما يحافظ الإنسان على ماله الخاص، بل أشد.

ومن مظاهر حفظ الحقوق في الإسلام توثيق العقود والديون، فقد أمر الله تعالى بكتابتها والإشهاد عليها في أطول آية في القرآن الكريم، وهي آية الدين في سورة البقرة. وهذا يدل على عناية الشريعة بمنع أسباب النزاع قبل وقوعها، وإرساء مبدأ الوضوح في المعاملات المالية، حتى تبقى الثقة قائمة بين الناس.

كما أن الإسلام يحث على الوفاء بالعهود والعقود، سواء كانت بين الأفراد، أو بين الجماعات، أو بين الدول، لأن استقرار الحياة لا يتحقق إلا إذا اطمأن الناس إلى أن الكلمة محترمة، والعقد ملزم، والحقوق مصونة. ولهذا كان الوفاء بالعهد من صفات المؤمنين، ونقضه من علامات الفساد.

ومن ثمار هذه التشريعات أن يطمئن الناس إلى أن جهودهم وأموالهم محفوظة، فيقبلون على العمل، والإنتاج، والاستثمار، والتجارة، دون خوف من الاعتداء أو

الاحتيال. كما يزداد التعاون بين أفراد المجتمع، وتنمو الحركة الاقتصادية في بيئة يسودها الأمن والثقة والعدل.

وفي المقابل، فإن المجتمعات التي يشيع فيها أكل الأموال بالباطل، والاحتيال، والفساد المالي، وضعف احترام الحقوق، تعاني اضطرابًا اقتصاديًا واجتماعيًا، وتفقد الثقة بين أفرادها، وتكثر فيها الخصومات، ويضعف الإقبال على الاستثمار والإنتاج، مهما بلغت إمكاناتها المادية.

ومن تأمل أحكام الإسلام في هذا الباب وجد أنها لا تهدف إلى حماية المال لذاته، وإنما إلى حماية الإنسان ومصالحه، وإقامة مجتمع يقوم على العدل، والثقة، والأمانة، والاحترام المتبادل. فحفظ الأموال والحقوق ليس غاية مستقلة، بل هو وسيلة لحفظ استقرار المجتمع وتحقيق مصالح أفراده.

خلاصة الفصل

أقام الإسلام نظامًا متكاملًا لحفظ الأموال والحقوق وصيانة المصالح العامة، فحرم جميع صور الاعتداء على الأموال، وأوجب أداء الأمانات، والوفاء بالعقود، وحماية الملكية الخاصة والعامة، وتوثيق المعاملات، ورد الحقوق إلى أصحابها. وبهذه المبادئ تنمو الثقة بين الناس، وتزدهر الحياة الاقتصادية، وتقل الخصومات، ويعيش المجتمع في استقرار وعدل، وهو من أعظم ما تستفيده المجتمعات من هدي الإسلام.

الفصل الرابع

الأخلاق العامة وأثرها في بناء المجتمع

لا تقوم المجتمعات على القوانين والأنظمة وحدها، مهما بلغت دقتها وإحكامها، بل تحتاج إلى منظومة أخلاقية تضبط سلوك الأفراد، وتغرس فيهم معاني الصدق، والأمانة، والرحمة، والعدل، والإحسان. فإذا صلحت أخلاق الناس، سهل تطبيق القوانين، وقلت الخصومات، واستقرت العلاقات، وأصبح المجتمع أكثر تماسكًا واستقرارًا.

ولهذا جاءت الشريعة الإسلامية بعناية عظيمة بالأخلاق، حتى كانت من أبرز مقاصدها. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

{إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق} رواه أحمد وغيره.

فالأخلاق في الإسلام ليست جانبًا تكميليًا، وإنما هي جزء أصيل من الدين، تظهر آثارها في علاقة الإنسان بربه، وبنفسه، وبأسرته، وبالمجتمع من حوله.

ومن أعظم الأخلاق التي دعا إليها الإسلام الصدق، فهو أساس الثقة بين الناس، وعماد استقامة المعاملات، وسبب لطمأنينة المجتمع. قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:119]،

وقال النبي صلى الله عليه وسلم:

{عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة}
متفق عليه.

فإذا شاع الصدق، اطمأن الناس إلى أقوال بعضهم، واستقامت المعاملات، وقلت أسباب النزاع.

ومن الأخلاق التي يقوم عليها المجتمع كذلك الأمانة، فهي تحفظ الحقوق، وتصون الأموال، وتبني الثقة بين الأفراد والمؤسسات. وقد أمر الله تعالى بأداء الأمانات، وجعل النبي صلى الله عليه وسلم خيانة الأمانة من علامات النفاق العملي. وكلما

رسخت الأمانة في المجتمع، قل الغش والفساد، وحسن أداء المسؤوليات، وازدهرت الحياة العامة.

كما دعا الإسلام إلى الرحمة والإحسان، لأن المجتمع الذي تسوده القسوة والأنانية يصعب أن يستقر أو يتعاون أفراده. قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل:90]،

وقال النبي صلى الله عليه وسلم:

{الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء} رواه الترمذي.

فالرحمة لا تقتصر على الضعفاء والمحتاجين، بل تشمل حسن التعامل مع جميع الناس، بل ومع الحيوان أيضًا.

ومن الأخلاق التي أكدها الإسلام الوفاء بالعهود والوعود، قال تعالى:

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:34].

فالوفاء يجعل العلاقات أكثر استقرارًا، ويعزز الثقة بين الناس، سواء في العلاقات الأسرية، أو الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو السياسية.

كما حث الإسلام على الحياء، والعفة، والتواضع، والحلم، والعفو، وكظم الغيظ، والإحسان إلى الجار، وبر المحتاج، وإكرام الضيف، واحترام الكبير، والرحمة بالصغير، وحسن الكلام، واجتناب السخرية، والغيبة، والنميمة، وسوء الظن، وسائر الأخلاق التي تفسد العلاقات بين الناس. فهذه الأخلاق ليست فضائل فردية فحسب، بل هي دعائم لاستقرار المجتمع وسلامة نسيجه.

ومن خصائص الأخلاق في الإسلام أنها لا تقوم على المصلحة المتغيرة أو العرف وحده، بل تستند إلى الوحي، فتكون ثابتة في أصولها، مع مراعاة اختلاف الأعراف فيما لا يخالف الشرع. وهذا يمنح المجتمع مرجعية أخلاقية مستقرة، لا تتغير بتغير الأهواء أو المصالح المؤقتة.

كما أن الإسلام يربط الأخلاق بالإيمان، فلا تكون مجرد سلوك اجتماعي، وإنما عبادة يتقرب بها المسلم إلى ربه، ويرجو ثوابها في الدنيا والآخرة. وهذا الربط يمنح الأخلاق قوة داخلية، تجعل الإنسان يتمسك بها حتى عندما تغيب الرقابة البشرية، لأنه يعلم أن الله مطلع على أعماله.

ومن آثار انتشار الأخلاق الفاضلة في المجتمع زيادة الثقة بين الناس، وتقوية روح التعاون، وتقليل الجرائم، والحد من الخصومات، وتعزيز احترام الحقوق، وإيجاد بيئة صالحة للعلم، والعمل، والاستثمار، والإبداع. فالأخلاق ليست أثرًا جانبيًا للحضارة، بل هي أحد أهم أسباب قيامها واستمرارها.

وفي المقابل، فإن انهيار الأخلاق يؤدي إلى انتشار الكذب، والخيانة، والغش، والفساد، والعدوان، وضعف الثقة، وتفكك العلاقات الاجتماعية، مهما بلغت قوة المجتمع الاقتصادية أو العسكرية. ولهذا كانت الأخلاق من أعظم عوامل قوة الأمم، كما أن فسادها من أعظم أسباب ضعفها وانهيارها.

ومن تأمل تعاليم الإسلام وجد أنها تبني مجتمعًا يتعامل أفراده فيما بينهم على أساس الاحترام، والصدق، والأمانة، والرحمة، والإحسان، فيسود بينهم التعاون والثقة، ويصبح المجتمع أكثر قدرة على تحقيق مصالحه، ومواجهة تحدياته، والمحافظة على استقراره.

خلاصة الفصل

جعل الإسلام الأخلاق العامة أساسًا لبناء المجتمع، وربطها بالإيمان والعبادة، ودعا إلى الصدق، والأمانة، والرحمة، والوفاء، والعفة، والتواضع، والإحسان، وسائر مكارم الأخلاق، ونهى عن كل ما يفسد العلاقات بين الناس. وبهذه المنظومة الأخلاقية تترسخ الثقة، ويقوى التعاون، وتقل أسباب النزاع، ويصبح المجتمع أكثر استقرارًا وتماسكًا، وهو من أعظم ما يستفيده الناس من هدي الإسلام.

الفصل الخامس

التكافل الاجتماعي ورعاية الضعفاء والمحتاجين

يقوم المجتمع القوي على التعاون بين أفراده، وشعور كل فرد بمسؤوليته تجاه غيره، ولا سيما من أصابتهم الحاجة أو العجز أو المرض أو الكبر. ولهذا جعل الإسلام التكافل الاجتماعي من أهم الأسس التي تحفظ تماسك المجتمع، وتخفف من معاناة المحتاجين، وتقوي روابط المودة والرحمة بين الناس.

ولم يجعل الإسلام التكافل مجرد شعور إنساني أو خلق مستحب، بل جعله عبادة يتقرب بها العبد إلى الله تعالى، وحقًا للمحتاج في مال القادر، فقال سبحانه:

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات:19]،

وقال تعالى:

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [النساء:36].

فالإحسان إلى المحتاجين جزء من منظومة الإيمان والعمل الصالح.

وتأتي الزكاة في مقدمة وسائل التكافل في الإسلام، فهي ركن من أركان الدين، ووسيلة لتحقيق التوازن الاجتماعي، وتخفيف الفقر، وإعانة المحتاجين، وسد حاجات الأصناف التي حددها الله تعالى في كتابه. فهي ليست مجرد ضريبة مالية، بل عبادة تجمع بين تزكية النفس، وتنمية روح البذل، وتحقيق مصالح المجتمع.

كما حث الإسلام على الصدقات التطوعية، وجعلها بابًا واسعًا من أبواب الخير، فقال تعالى:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ [البقرة:245]،

وقال النبي صلى الله عليه وسلم:

{ما نقص مال من صدقة} رواه مسلم.

فالصدقة لا تقتصر على المال، بل تشمل كل صور الإحسان والنفع، مما يجعل التكافل سلوكًا يوميًا في حياة المسلم.

ومن مظاهر التكافل التي اعتنى بها الإسلام كفالة الأيتام، ورعاية الأرامل، والعناية بالفقراء، والمساكين، وابن السبيل، والمدينين العاجزين، وذوي الاحتياجات، وكبار السن، وكل من يحتاج إلى العون. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

{أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا} وأشار بالسبابة والوسطى، رواه البخاري،

فبين بذلك عظم منزلة من يرعى الضعفاء ويقوم على شؤونهم.

كما دعا الإسلام إلى تفقد أحوال الجيران، ومواساة المنكوبين، وإغاثة الملهوفين، وإطعام الجائعين، وكسوة المحتاجين، وقضاء حوائج الناس، وعدَّ ذلك من أفضل الأعمال. فالمجتمع الذي يشعر فيه الإنسان أن من حوله لن يتركوه عند الشدة، يكون أكثر تماسكًا، وأقوى ترابطًا، وأبعد عن الأنانية والتفكك.

ومن الوسائل الحضارية التي عرفها المسلمون عبر تاريخهم نظام الوقف، الذي أسهم في تمويل المساجد، والمدارس، والمستشفيات، ودور الأيتام، ورعاية الفقراء، وخدمة المسافرين، وسائر وجوه البر. وقد كان الوقف من أبرز صور التكافل المستدام، إذ امتد أثره أجيالًا متعاقبة، وأسهم في نهضة المجتمعات الإسلامية في مجالات العلم، والصحة، والرعاية الاجتماعية.

ومن ثمار التكافل الاجتماعي أنه يخفف من حدة الفوارق الاقتصادية، ويقلل من أسباب الحقد والحسد، ويحد من انتشار الجريمة التي قد تنشأ عن الفقر والحاجة، كما يعزز روح الانتماء للمجتمع، ويشعر كل فرد بأن له مكانة وحقوقًا، وأن المجتمع لا يتخلى عنه عند ضعفه أو عجزه.

ولا يقتصر أثر التكافل على المحتاج وحده، بل يعود بالنفع على المجتمع كله؛ فحين تنتشر روح البذل والتعاون، تزداد الثقة بين الناس، وتقوى العلاقات الاجتماعية، ويشعر الجميع بالمسؤولية المشتركة، مما يجعل المجتمع أكثر قدرة على مواجهة الأزمات والكوارث والتحديات.

ومع ذلك، فإن الإسلام يوازن بين التكافل والعمل، فلا يدعو إلى الاتكال أو الكسل، بل يحث القادر على الكسب والسعي، ويجعل المساعدة موجهة إلى من يحتاجها حقيقة، مع تشجيع الإنسان على الاعتماد على نفسه ما استطاع. وبهذا يجمع الإسلام بين الرحمة بالضعفاء، وتنمية روح المسؤولية والإنتاج.

ومن تأمل تشريعات الإسلام وجد أنها تبني مجتمعًا لا يترك الضعيف وحده، ولا يسمح بأن يتحول الفقر أو المرض أو اليتم إلى سبب لإقصاء الإنسان أو امتهان كرامته، بل تجعل التعاون والإحسان جزءًا من حياة المجتمع اليومية، فيتحقق بذلك قدر كبير من الاستقرار والرحمة والعدل.

خلاصة الفصل

أقام الإسلام التكافل الاجتماعي على أسس راسخة، فجعل الزكاة ركنًا من أركانه، وحث على الصدقات، وكفالة الأيتام، ورعاية الفقراء والمحتاجين، والإحسان إلى الجيران، وإغاثة الملهوفين، ودعم الأوقاف وسائر وجوه البر. وبهذه المنظومة يزداد تماسك المجتمع، وتخف معاناة الضعفاء، وتقوى روابط الأخوة والتعاون، وتتحقق مصالح عامة تعود بالنفع على جميع أفراد المجتمع، وهو من أعظم ما يستفيده الناس من الإسلام.

الفصل السادس

القضاء العادل وفض المنازعات وحماية الحقوق

لا يخلو مجتمع من وقوع الخلافات والنزاعات بين أفراده، لاختلاف الطبائع، وتعارض المصالح، وتباين وجهات النظر. ولذلك كان وجود قضاء عادل يفصل بين الناس، ويرد الحقوق إلى أصحابها، ويمنع الظلم، من أعظم مقومات استقرار المجتمعات واستمرارها. وقد أولى الإسلام هذا الجانب عناية كبيرة، فجعل القضاء من الولايات العظيمة التي تحفظ بها الأنفس، والأموال، والأعراض، وتصان بها الحقوق، ويستتب بها الأمن.

وقد أمر الله تعالى بالعدل في القضاء، فقال سبحانه:

﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء:58]،

وقال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل:90].

فالقضاء في الإسلام ليس وسيلة لفرض السلطة، وإنما وسيلة لإقامة العدل، وإنصاف المظلوم، ومنع الظالم من التمادي في ظلمه.

ولم يجعل الإسلام القضاء قائمًا على الهوى، أو المحاباة، أو المصالح الشخصية، بل أوجب على القاضي أن يحكم بالحق، وأن يتجرد من كل مؤثر قد يخرجه عن العدل، سواء كان قرابة، أو صداقة، أو عداوة، أو منفعة. ولذلك كان القاضي مطالبًا بالعلم، والأمانة، والنزاهة، وحسن الفهم، حتى يؤدي مهمته على الوجه الذي يرضي الله ويحقق مصالح الناس.

كما أرسى الإسلام قواعد الإثبات التي تحفظ الحقوق، فشرع البينة، والشهادة، والإقرار، واليمين في مواضعها، حتى لا تضيع الحقوق بالدعاوى المجردة، ولا يؤخذ بريء بغير دليل. وهو أصل عظيم في باب القضاء وإثبات الحقوق.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

{لو يُعطى الناس بدعواهم، لادعى ناس دماء رجال وأموالهم، ولكن البينة على المدعي، واليمين على من أنكر} رواه البيهقي وغيره،

ولم يقتصر الإسلام على القضاء بعد وقوع النزاع، بل شجع على الإصلاح بين الناس قبل وصول الخصومة إلى المحاكم، فقال تعالى:

﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء:128]،

وقال سبحانه:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات:10].

فالصلح المشروع يزيل أسباب العداوة، ويحفظ العلاقات، ويحقق المصلحة للطرفين متى كان قائمًا على العدل والرضا.

كما حرم الإسلام شهادة الزور، وكتمان الشهادة، والرشوة، وكل ما يؤدي إلى ضياع الحقوق أو انحراف القضاء عن مساره. قال تعالى:

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة:283].

فالقضاء العادل لا يتحقق بالقاضي وحده، بل يحتاج إلى مجتمع يلتزم بالصدق والأمانة في أداء الشهادات والحقوق.

ومن آثار القضاء العادل أن يشعر الناس بأن حقوقهم مصونة، وأن المظلوم يجد من ينصفه، وأن الظالم لا يستطيع الإفلات من المحاسبة. وهذا يحد من انتشار الاعتداءات، ويمنع كثيرًا من صور الانتقام الفردي، ويقوي ثقة الناس بالمجتمع ومؤسساته.

كما يسهم القضاء العادل في استقرار الحياة الاقتصادية والاجتماعية، لأن الناس يطمئنون إلى أن العقود ستحترم، والحقوق سترد، والنزاعات ستحسم بالعدل، مما يشجع على الاستثمار، والتجارة، والعمل، والتعاون بين أفراد المجتمع.

ومن خصائص القضاء في الإسلام أنه لا يفرق بين الناس بسبب جاه أو مال أو نسب أو منصب، فالناس سواء أمام أحكام الشريعة. وقد جسد النبي صلى الله عليه وسلم هذا المبدأ في قوله: **{لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها}** متفق عليه، تأكيدًا

على أن العدالة لا تعرف المحاباة، وأن مكانة الإنسان لا تعفيه من تحمل مسؤولية أفعاله.

ومن تأمل تاريخ القضاء في الحضارة الإسلامية وجد نماذج مشرقة من استقلال القضاء، ومحاسبة أصحاب النفوذ، وإنصاف الضعفاء، حتى أصبح القضاء العادل أحد الأسباب التي أسهمت في استقرار المجتمعات الإسلامية عبر قرون طويلة، ورسخت ثقة الناس بالعدل الذي جاءت به الشريعة.

ومن هنا يتبين أن القضاء في الإسلام ليس مجرد وسيلة لحل الخصومات، بل هو ركيزة أساسية لحماية الحقوق، وصيانة المجتمع من الفوضى، وإقامة العدل بين الناس. وكلما كان القضاء نزيهًا وعادلًا، ازداد المجتمع أمنًا واستقرارًا، واطمأن الناس إلى أن حقوقهم محفوظة.

خلاصة الفصل

جعل الإسلام القضاء العادل من أهم دعائم المجتمع، فأمر بالحكم بالعدل، ووضع قواعد دقيقة لإثبات الحقوق، وحث على الإصلاح بين الناس، وحرم كل ما يفسد العدالة من شهادة الزور والرشوة والمحاباة. وبهذه المبادئ تحفظ الحقوق، وتفصل المنازعات، ويأمن المظلوم على حقه، ويستقر المجتمع على أساس من العدل والثقة، وهو من أعظم ما يستفيده الناس من الإسلام.

الفصل السابع

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودوره في إصلاح المجتمع

من خصائص الإسلام أنه لا يكتفي بإصلاح الفرد في نفسه، ولا ببناء الأسرة على أسس صحيحة، ولا بوضع الأنظمة التي تنظم شؤون المجتمع، بل يدعو أيضًا إلى المحافظة على صلاح المجتمع واستمرار خيره، وذلك من خلال مبدأ عظيم جعله الله من خصائص هذه الأمة، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال تعالى:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:110].

والمقصود بالمعروف كل ما عرف حسنه في الشريعة، من الإيمان، والعبادات، والأخلاق، والعدل، والإحسان، وأداء الحقوق، وسائر الأعمال الصالحة. أما المنكر فهو كل ما نهى الله ورسوله عنه من الكفر، والظلم، والفساد، والعدوان، والفواحش، وسائر المعاصي. وبذلك يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة لحماية المجتمع من أسباب الانحراف، وتعزيز أسباب الصلاح.

وليس هذا المبدأ دعوة إلى التسلط على الناس، أو تتبع عوراتهم، أو التدخل في خصوصياتهم، وإنما هو دعوة إلى النصيحة والإصلاح بالحكمة والرفق، وفق الضوابط التي قررتها الشريعة. قال تعالى:

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل:125].

فالحكمة، وحسن الأسلوب، ومراعاة المصلحة، من أهم ما يحقق المقصود من هذا الواجب.

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم مراتب إنكار المنكر بحسب القدرة والاستطاعة، فقال:

{من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان} رواه مسلم.

وهذا الحديث يبين أن القيام بهذا الواجب مرتبط بالقدرة، وأنه ليس على مرتبة واحدة، بل يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص والولايات.

وقد قرر العلماء أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له ضوابط شرعية، من أهمها أن يكون الآمر عالمًا بما يأمر به وينهى عنه، وأن يكون المنكر ثابتًا، وأن يغلب على الظن أن يترتب على الإنكار مصلحة أو تقليل للشر، وألا يؤدي إلى منكر أعظم منه. فالمقصود من هذا الواجب تحقيق الإصلاح، لا زيادة الفساد أو إثارة الفتن.

ومن أعظم ثمار هذا المبدأ أنه يحافظ على هوية المجتمع وقيمه، ويمنع انتشار المنكرات قبل أن تستفحل، ويشجع الناس على فعل الخير، ويقوي روح المسؤولية الجماعية، فلا يصبح كل فرد منشغلًا بنفسه وحدها، بل يشعر بأن صلاح المجتمع مسؤولية مشتركة بين الجميع، كل بحسب قدرته واختصاصه.

كما يسهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الحد من الظلم، والغش، والفساد، والاعتداء على الحقوق، لأن المجتمع الذي تسود فيه النصيحة الصادقة، ويجد المخطئ فيه من يذكره بالله، يكون أقرب إلى تصحيح أخطائه قبل أن تتحول إلى ظواهر عامة يصعب علاجها.

ومن صور هذا المبدأ في الحياة اليومية: تعليم الجاهل، ونصح المخطئ برفق، وتشجيع أصحاب المبادرات الخيرية، والتحذير من الغش والخداع، والدعوة إلى الصدق والأمانة، وإصلاح ذات البين، والتعاون على البر والتقوى. فكل ذلك داخل في مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا روعي فيه الإخلاص والحكمة والضوابط الشرعية.

وفي المقابل، فإن إهمال هذا الواجب يؤدي إلى اعتياد المنكر، وضعف الحس الأخلاقي، وانتشار الفساد شيئًا فشيئًا، حتى يصبح ما كان مستنكرًا أمرًا مألوفًا. ولهذا حذر القرآن الكريم من ترك التناصح والإصلاح، وذم الأمم التي سكتت عن المنكر مع قدرتها على إنكاره، فقال تعالى:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ... ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾
[المائدة:78-79].

ومن تأمل هذا المبدأ وجد أنه لا يهدف إلى مراقبة الناس أو التضييق عليهم، وإنما إلى بناء مجتمع يتعاون أفراده على الخير، ويتواصون بالحق، ويتناصحون فيما بينهم، ويسعون إلى تقليل أسباب الفساد ونشر أسباب الصلاح. ولذلك جعله الإسلام من أهم وسائل المحافظة على سلامة المجتمع واستقراره.

خلاصة الفصل

جعل الإسلام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة لإصلاح المجتمع، وحماية قيمه، والحد من انتشار الفساد، وربط القيام به بالحكمة، والرفق، والعلم، ومراعاة المصالح والمفاسد. وبهذه المنظومة ينمو الخير، ويضعف الشر، وتتقوى روح المسؤولية المشتركة، ويتعاون أفراد المجتمع على البر والتقوى، فيزداد المجتمع تماسكًا واستقرارًا، وهو من أعظم ما يستفيده الناس من الإسلام.

خاتمة الباب الرابع

يتبين من خلال هذا الباب أن الإسلام لا يقتصر على تهذيب الفرد، ولا على إصلاح الأسرة فحسب، بل يمتد أثره إلى بناء مجتمع متكامل يقوم على الأمن، والعدل، وصيانة الحقوق، ومكارم الأخلاق، والتكافل، والقضاء العادل، والإصلاح المستمر. فهذه المبادئ ليست أحكامًا متفرقة، وإنما منظومة متناسقة يعضد بعضها بعضًا، ويكتمل بها عمران المجتمع واستقراره.

وقد رأينا أن الأمن لا يتحقق بالقوة المجردة، وإنما يقوم على الإيمان، والعدل، واحترام الحقوق، وأن العدل هو الأساس الذي تستقيم به العلاقات بين الناس، وتطمئن إليه النفوس، وتستقر به المجتمعات. كما أن حفظ الأموال والحقوق يصون مصالح الأفراد، ويعزز الثقة بين الناس، ويهيئ بيئة صالحة للعمل والإنتاج والازدهار.

وتبين كذلك أن الأخلاق العامة ليست فضائل فردية معزولة، بل هي ضرورة اجتماعية تحفظ الثقة، وتقوي الروابط، وتحد من أسباب النزاع والفساد. كما أن التكافل الاجتماعي يجعل المجتمع أكثر رحمة وتماسكًا، فلا يترك الضعفاء والمحتاجين دون عون، بل يشترك أفراده في تحمل المسؤولية، كل بحسب قدرته واستطاعته.

ورأينا أيضًا أن القضاء العادل يمثل صمام الأمان لحماية الحقوق وحسم المنازعات، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يسهم في صيانة المجتمع من الانحراف، ويعزز ثقافة النصيحة والإصلاح، حتى يبقى الخير ظاهرًا، والفساد محاصرًا في أضيق نطاق.

ومن تأمل هذه المبادئ مجتمعة وجد أنها لا تعمل متفرقة، بل يتوقف نجاح بعضها على بعض. فالأمن لا يدوم بغير عدل، والعدل لا يكتمل بغير قضاء نزيه، والقضاء لا يغني عن الأخلاق، والأخلاق لا تزدهر في مجتمع تغيب عنه روح التكافل، كما أن المحافظة على هذه المنظومة تحتاج إلى تعاون أفراد المجتمع على نشر الخير، وتصحيح الخطأ، وتعزيز القيم الفاضلة.

ولهذا لم يقدم الإسلام للمجتمع حلولًا جزئية لمشكلات متفرقة، بل قدم منهجًا متكاملًا لبناء مجتمع آمن، وعادل، ومتراحم، ومتعاون، تُحفظ فيه الحقوق، وتُصان فيه

الكرامة الإنسانية، وتُفتح فيه أبواب العمل والعلم والإصلاح. وكلما اقترب المجتمع من هذه المبادئ، ازداد قوة واستقرارًا وازدهارًا، وكلما ابتعد عنها، ظهرت فيه صور الاضطراب والظلم والتفكك.

وبهذا يكتمل الحديث عن أثر الإسلام في بناء المجتمع، لينتقل الكتاب بعد ذلك إلى دائرة أوسع، وهي أثر الإسلام في الإنسانية كلها؛ إذ لا تقتصر منافع الإسلام على أتباعه أو على المجتمعات الإسلامية، بل تمتد مبادئه وقيمه وتشريعاته لتقدم للبشرية جمعاء أسسًا راسخة للعدل، والرحمة، وحفظ الكرامة، والتعايش، وتحقيق الخير العام.

الباب الخامس

ماذا تستفيد الإنسانية من الإسلام؟

الفصل الأول

تكريم الإنسان وحفظ كرامته الإنسانية

الفصل الثاني

حقوق الإنسان في الإسلام وحماية الحريات المشروعة

الفصل الثالث

تكريم المرأة وحقوقها وواجباتها في الإسلام

الفصل الرابع

حقوق غير المسلمين والتعايش معهم بالعدل والإحسان

الفصل الخامس

العدل في العلاقات بين الأمم والشعوب

الفصل السادس

السلم والحرب في الإسلام وحماية الأبرياء

الفصل السابع

محاربة العنصرية والتمييز وترسيخ مبدأ المساواة الإنسانية

الفصل الأول

تكريم الإنسان وحفظ كرامته الإنسانية

يعد تكريم الإنسان من أعظم المبادئ التي جاء بها الإسلام، وهو من أبرز ما تستفيده الإنسانية من هذا الدين. فقد قرر الإسلام أن الإنسان مكرم من حيث أصل خلقته وإنسانيته، وأن له مكانة عظيمة بين المخلوقات، وأن الله تعالى هيأ له من النعم ما يعينه على عمارة الأرض والقيام بمهمة الاستخلاف فيها. قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:70].

ويلاحظ أن الآية الكريمة نسبت هذا التكريم إلى **بني آدم**، ولم تخص به المؤمنين وحدهم، مما يدل على أن أصل الكرامة الإنسانية ثابت لكل إنسان بوصفه من ذرية آدم عليه السلام. ومن هنا كانت حياة الإنسان، وماله، وعرضه، وحقوقه، محل عناية الشريعة وصيانتها، بغض النظر عن جنسه أو لونه أو لغته أو موطنه.

ويقوم هذا التكريم على أسس راسخة، من أهمها أن الله تعالى خلق الإنسان بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلمه، وميزه بالعقل والإرادة والقدرة على الاختيار، وسخر له كثيرًا مما في السماوات والأرض، وأرسل إليه الرسل، وأنزل الكتب، وجعله مخاطبًا بالتكاليف الشرعية. وكل ذلك يدل على المنزلة التي جعلها الله للإنسان بين سائر المخلوقات.

ولا يقتصر تكريم الإنسان في الإسلام على الجانب المعنوي، بل يظهر في التشريعات العملية التي تحمي حياته وكرامته. فقد حرم الإسلام الاعتداء على النفس بغير حق، وجعل قتل نفس واحدة من أعظم الجرائم، فقال تعالى:

﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:32].

كما حرم الاعتداء على العرض، ونهى عن القذف، والغيبة، والسخرية، والتنابز بالألقاب، وكل ما يمس كرامة الإنسان أو يهين شخصيته.

ومن مظاهر هذا التكريم أن الإسلام أمر بحفظ جسد الإنسان حيًا وميتًا. فنهى عن تعذيبه، أو التمثيل به، أو الاعتداء عليه، وأوجب دفنه بعد موته وصيانة حرمته. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

{كسر عظم الميت ككسره حيًا} رواه أبو داود وابن ماجه،

وفي ذلك تأكيد على استمرار حرمة الإنسان حتى بعد وفاته.

كما كرم الإسلام الإنسان بإقرار حريته الأصلية، فلم يجز استعباد الأحرار، وحاصر أسباب الرق التي كانت منتشرة في العالم آنذاك، ووسع أبواب العتق، وجعل تحرير الرقاب من أفضل القربات، وربطه بعدد من الكفارات، وشجع على معاملة المماليك بالإحسان والعدل، حتى انتهى هذا النظام تدريجيًا في المجتمعات الإسلامية.

ومن صور تكريم الإنسان في الإسلام أنه راعى كرامته في حال ضعفه وحاجته، فأوجب الإحسان إلى الفقراء، ورعاية الأيتام، والعناية بكبار السن، والرحمة بالمرضى، وإغاثة الملهوف، ومساعدة المحتاج، ولم يجعل الفقر أو العجز سببًا لإهدار قيمة الإنسان أو الانتقاص من مكانته.

كما يظهر هذا التكريم في احترام العقل، وصيانة حرية التفكير في إطار المسؤولية، والدعوة إلى العلم، والتأمل، والنظر، والحوار بالحكمة، ورفض الإكراه على الاعتقاد، قال تعالى

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة:256].

فالإيمان الذي يريده الإسلام هو إيمان يقوم على الاقتناع والاختيار، لا على القسر والإجبار.

ولم يجعل الإسلام معيار التفاضل بين الناس قائمًا على النسب، أو المال، أو القوة، أو اللون، وإنما جعله قائمًا على التقوى والعمل الصالح، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:13].

وبهذا أزال الإسلام أسباب التعالي بين البشر، وربط الكرامة المكتسبة بما يقدمه الإنسان من إيمان وعمل صالح، مع بقاء الكرامة الإنسانية العامة التي يشترك فيها بنو آدم.

ومن آثار هذا التصور أن يعيش الإنسان وهو يشعر بقيمته وكرامته، وأن يعلم أن حياته ليست رخيصة، ولا حقوقه مهملة، ولا شخصيته محل امتهان، بل هو مخلوق كرمه الله، وأمر باحترامه، وحفظ حقوقه، وصيانة إنسانيته. كما يسهم هذا المبدأ في بناء مجتمعات تقوم على الاحترام المتبادل، ونبذ الإهانة والاحتقار، وتعزيز قيمة الإنسان لكونه إنسانًا.

ومن تأمل تعاليم الإسلام وجد أن تكريم الإنسان ليس شعارًا مجردًا، بل أصلًا تتفرع عنه أحكام كثيرة في العبادات، والمعاملات، والقضاء، والأسرة، والعلاقات الدولية، حتى أصبحت الكرامة الإنسانية إحدى السمات البارزة للشريعة الإسلامية، ومظهرًا من مظاهر رحمة الله بخلقه.

خلاصة الفصل

قرر الإسلام تكريم الإنسان وجعل حفظ كرامته أصلًا من أصول شريعته، فصان حياته، وعقله، وعرضه، وماله، وحرم الاعتداء عليه، ودعا إلى احترامه في جميع أحواله، حيًا وميتًا، قويًا وضعيفًا، وربط التفاضل الحقيقي بين الناس بالتقوى والعمل الصالح لا بالجنس أو اللون أو النسب. وبهذا قدم الإسلام للبشرية أساسًا متينًا لبناء علاقات إنسانية تقوم على الاحترام، والعدل، وصيانة الكرامة، وهو من أعظم ما تستفيده الإنسانية من هذا الدين.

الفصل الثاني

حقوق الإنسان في الإسلام وحماية الحريات المشروعة

جاء الإسلام بمنظومة متكاملة من الحقوق التي تحفظ للإنسان حياته وكرامته ومصالحه، ولم تكن هذه الحقوق منحة يمنحها بشر لبشر، أو امتيازًا تمنحه سلطة لفئة دون أخرى، وإنما جعلها الشارع الحكيم حقوقًا ثابتة، مصدرها وحي الله تعالى، فلا يجوز الاعتداء عليها أو تعطيلها إلا بحق يقرره الشرع. ولهذا كانت حقوق الإنسان في الإسلام جزءًا من منظومة العدل التي جاء بها الدين، وليست أحكامًا منفصلة عنها.

وقد حفظ الإسلام للإنسان حق الحياة، فحرم الاعتداء على النفس بغير حق، وجعل حفظها من أعظم مقاصد الشريعة، كما حفظ له حق الأمن، وحق الملكية، وحق الكرامة، وحق التقاضي، وحق التعلم، وحق العمل والكسب المشروع، وحق تكوين الأسرة، وحق صيانة عرضه وسمعته، وجعل لكل واحد من هذه الحقوق من الأحكام والضمانات ما يحفظه ويمنع الاعتداء عليه.

ومن خصائص الحقوق في الإسلام أنها تقترن دائمًا بالواجبات، فلا يكون الإنسان مطالبًا بحقوقه وحدها، بل يكون مسؤولًا أيضًا عن أداء حقوق الآخرين. فلكل حق يقابله واجب، ولكل مصلحة يقابلها التزام، وبذلك يتحقق التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع، فلا تطغى إحداهما على الأخرى.

وقد قرر الإسلام حرية الإنسان في كثير من شؤون حياته، فأباح له الانتفاع بطيبات الحياة، والعمل، والتجارة، والتنقل، والتملك، والتعلم، والتفكير، والتعبير بالحق، واختيار ما ينفعه في أمور الدنيا، ما لم يتضمن ذلك اعتداءً على حقوق الآخرين أو مخالفة لأحكام الله تعالى. فالأصل في شؤون العادات والمعاملات الإباحة، إلا ما دل الدليل على منعه.

ومن الحريات التي أكدها الإسلام حرية الاعتقاد بمعنى عدم إكراه أحد على الدخول في الإسلام، قال تعالى:

﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ [البقرة:256].

فالإيمان لا يتحقق بالإجبار، وإنما يقوم على العلم والاقتناع والاختيار. وقد دعا الإسلام إلى الحوار بالحكمة، وإقامة الحجة، وترك للإنسان مسؤولية اختياره أمام الله تعالى.

كما حفظ الإسلام حرية الرأي والمشورة في إطار الحق والعدل، وشجع على إبداء الرأي، والنصح، والشورى، وتصحيح الخطأ، فقال تعالى في وصف المؤمنين:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:38].

غير أن هذه الحرية ليست مطلقة بحيث تبيح الظلم، أو نشر الباطل، أو الاعتداء على أعراض الناس، أو إثارة الفتن، بل تقف عند حدود حفظ الحقوق والمصالح العامة.

وحفظ الإسلام كذلك حق الإنسان في التملك والكسب المشروع، فأباح التجارة، والعمل، والزراعة، والصناعة، وسائر وسائل الكسب المباحة، وحرم في المقابل السرقة، والغصب، والغش، والربا، والاحتيال، لما في ذلك من اعتداء على حقوق الآخرين وإفساد للحياة الاقتصادية.

ومن الحقوق التي أكدها الإسلام حق التقاضي والإنصاف، فلا يجوز أن يحرم الإنسان من المطالبة بحقه، ولا أن يعاقب بغير بينة أو محاكمة عادلة. وقد أمر الله بالحكم بين الناس بالعدل، وجعل القضاء وسيلة لحماية الحقوق، ورد المظالم، وإنصاف الضعفاء، دون تمييز بين الناس بسبب نسب أو مال أو جاه.

كما حفظ الإسلام خصوصية الإنسان، ونهى عن التجسس وتتبع العورات، فقال تعالى:

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات:12]،

ونهى عن اقتحام البيوت بغير استئذان، فقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النور:27].

وهذه الأحكام تؤكد احترام الإسلام للحياة الخاصة وصيانة كرامة الإنسان.

ومن خصائص الشريعة الإسلامية أن الحقوق فيها لا تنفصل عن المقاصد العامة التي تحقق الخير للناس. فهي تحفظ الضرورات الخمس: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، وتبني أحكامها على تحقيق المصالح ودرء المفاسد. ولهذا جاءت الحقوق في الإسلام متوازنة، تحفظ للفرد كرامته وحريته، وتحفظ للمجتمع أمنه واستقراره في الوقت نفسه.

ومن تأمل هذه المنظومة وجد أنها لا تقوم على الصراع بين الفرد والمجتمع، ولا على تقديم أحدهما بإطلاق، وإنما تقيم علاقة متوازنة تجعل الحقوق والواجبات متكاملة، فينتفع الفرد بحرياته المشروعة، ويؤدي في الوقت نفسه ما عليه من مسؤوليات تجاه أسرته ومجتمعه والإنسانية.

خلاصة الفصل

أقام الإسلام منظومة متكاملة لحقوق الإنسان، فجعلها حقوقًا ثابتة مصدرها الوحي، وحفظ بها حياة الإنسان، وكرامته، وأمنه، وماله، وعرضه، وخصوصيته، وحقه في التعلم، والعمل، والتملك، والتقاضي، وممارسة الحريات المشروعة. كما قرن الحقوق بالواجبات، وأقام التوازن بين مصلحة الفرد والمجتمع، فقدم للبشرية تصورًا متكاملًا للحقوق يقوم على العدل، والمسؤولية، وصيانة الكرامة الإنسانية.

الفصل الثالث

تكريم المرأة وحقوقها وواجباتها في الإسلام

تحتل المرأة في الإسلام مكانة رفيعة، وقد جاء هذا الدين بتشريعات تحفظ كرامتها، وتصون حقوقها، وتراعي طبيعتها، وتقرر مسؤوليتها، وتجعلها شريكة للرجل في أصل الإنسانية والتكليف والثواب والعقاب. قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء:1]،

وقال سبحانه:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:97].

فالأصل الذي ينطلق منه الإسلام هو وحدة الأصل الإنساني، والمساواة في الكرامة الإنسانية، وفي المسؤولية أمام الله تعالى.

وقد جاء الإسلام في زمن كانت المرأة في كثير من المجتمعات تتعرض لألوان من الظلم والانتقاص، فنهى عن وأد البنات، وذم من يستثقل ولادة الأنثى، وقرر أن البنات نعمة من نعم الله، كما حفظ للمرأة شخصيتها المستقلة، فلم يجعلها تابعة لغيرها في ذمتها المالية أو حقوقها الأساسية.

ومن مظاهر تكريم الإسلام للمرأة أنه جعل لها حق اختيار الزوج، فلا يصح إكراهها على الزواج بغير رضاها، كما جعل عقد الزواج قائمًا على التراضي بين الطرفين، وأوجب للمرأة المهر، وجعل النفقة على الزوج، وأمر بحسن عشرتها، فقال تعالى:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:19].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم:

{خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي} رواه الترمذي.

كما قرر الإسلام للمرأة حق التملك، والبيع، والشراء، والإجارة، والهبة، والوصية، وسائر التصرفات المالية المشروعة، وجعل لها ذمة مالية مستقلة، فلا يملك أحد أن

يتصرف في مالها بغير رضاها. وهذا من الحقوق التي قررتها الشريعة منذ قرون طويلة.

وأعطى الإسلام المرأة حق الميراث، بعد أن كانت في كثير من المجتمعات لا ترث شيئًا، فجعل لها نصيبًا مفروضًا بحسب درجة القرابة وأحكام الميراث التي بينها القرآن الكريم. كما أوجب لها النفقة في مراحل متعددة من حياتها، سواء كانت بنتًا، أو زوجة، أو في عدتها بعد الطلاق في الأحوال التي قررتها الشريعة، بما يكفل لها حياة كريمة.

كما حث الإسلام على تعليم المرأة، وجعل طلب العلم مشروعًا لها كما هو مشروع للرجل، وكانت نساء الصحابة يتعلمن من النبي صلى الله عليه وسلم، ويسألنه عن أمور دينهن، وروت أمهات المؤمنين والصحابيات عددًا كبيرًا من الأحاديث، وأسهمن في تعليم الأمة ونقل العلم.

ولم يغفل الإسلام دور المرأة في الأسرة والمجتمع، فجعل لها مكانة عظيمة بصفتها أمًا، وزوجة، وبنتًا، وأختًا، وربط الإحسان إليها بعظيم الأجر. فقد قرن الله الإحسان إلى الوالدين بعبادته، وكانت الأم أولى الناس بحسن الصحبة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم حين سئل:

«من أحق الناس بحسن صحابتي؟» قال: **{أمك}**، ثم قال: **{أمك}**، ثم قال: **{أمك}**، ثم قال: **{ثم أبوك}** متفق عليه.

وفي الوقت نفسه، قرر الإسلام أن الحقوق تقابلها واجبات، كما هو شأن جميع التشريعات الشرعية. فأوجب على المرأة من الواجبات ما يتناسب مع مسؤولياتها، كما أوجب على الرجل واجبات تقابل ما جعل له من حقوق. وبهذا تقوم العلاقة بينهما على التعاون، والتكامل، وتحمل المسؤولية، لا على الصراع أو التنافس.

ومن المهم أن تُفهم أحكام الإسلام المتعلقة بالمرأة في إطار المنظومة الشرعية الكاملة، لا من خلال حكم منفرد أو واقعة جزئية. فالشريعة تنظر إلى الأسرة باعتبارها وحدة متكاملة، وتوزع الحقوق والواجبات بما يحقق العدل، ويراعي الفطرة، ويحفظ استقرار الأسرة والمجتمع.

ومن تأمل واقع المجتمعات وجد أن حفظ كرامة المرأة، وصيانة حقوقها، وحمايتها من الاعتداء والاستغلال، وتمكينها من أداء رسالتها في الأسرة والمجتمع، من أهم أسباب استقرار المجتمع وتقدمه. وقد جاءت الشريعة الإسلامية بأصول وتشريعات تحقق هذه المقاصد، وتوازن بين حقوق المرأة وواجباتها، وبين مصلحتها ومصلحة الأسرة والمجتمع.

خلاصة الفصل

كرم الإسلام المرأة، وقرر لها كرامتها الإنسانية، وضمن لها حقوقها في الزواج، والذمة المالية، والميراث، والنفقة، والتعلم، وحسن المعاشرة، وصانها من صور الظلم والاعتداء، كما قرر لها واجبات تتكامل مع حقوقها في إطار الأسرة والمجتمع. وبهذه المنظومة قدم الإسلام تصورًا متوازنًا يحقق العدل، ويحفظ الكرامة، ويعزز استقرار الأسرة والمجتمع، وهو من أبرز ما تستفيده الإنسانية من هذا الدين.

الفصل الرابع

حقوق غير المسلمين والتعايش معهم بالعدل والإحسان

جاء الإسلام رسالةً للعالمين، يخاطب الناس جميعًا، ويدعوهم إلى عبادة الله وحده بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم يجعل اختلاف الدين مبررًا لظلم الناس أو الاعتداء على حقوقهم. ولهذا قرر الإسلام جملة من المبادئ والأحكام التي تنظم العلاقة مع غير المسلمين، وتقوم على العدل، والوفاء، والإحسان، واحترام الكرامة الإنسانية، مع بقاء التمايز العقدي والديني الذي يقرره الإسلام.

ومن أصول هذه العلاقة أن الإسلام يدعو إلى العدل مع جميع الناس، فقال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل:90]،

وقال سبحانه:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:8].

فالاختلاف في الدين لا يسقط حق الإنسان في العدل، ولا يبيح الظلم أو الاعتداء.

كما بين القرآن الكريم أن الأصل في التعامل مع غير المحاربين هو البر والإقساط، فقال تعالى:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:8].

فجمع بين البر، وهو الإحسان، وبين القسط، وهو العدل، ليقرر أن حسن المعاملة لا يتعارض مع الثبات على العقيدة.

وقد حفظ الإسلام لغير المسلمين حقوقهم في الأنفس، والأموال، والأعراض، فمنع الاعتداء عليهم بغير حق، وأوجب الوفاء بالعهود والمواثيق المبرمة معهم، وحرم الغدر والخيانة. وقال النبي صلى الله عليه وسلم:

{من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا} رواه البخاري.

وهذا يدل على عظم حرمة الدماء، ووجوب احترام الأمان الذي يثبت لغير المسلمين.

كما أباح الإسلام المعاملات المالية المباحة مع غير المسلمين، من بيع، وشراء، وإجارة، وشراكة، واستئجار، وقبول الهدايا وإهدائها في حدود ما أباحه الشرع، وقد تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع غير المسلمين في معاملات متعددة، مما يدل على أن الأصل في المعاملات الإباحة ما لم تتضمن محرمًا.

وأجاز الإسلام بر الوالدين غير المسلمين، وصلة الأقارب منهم، والإحسان إلى الجار غير المسلم، وزيارة المريض، ومواساة المحتاج، وغير ذلك من صور الإحسان التي لا تتعارض مع أحكام العقيدة. وبهذا يجمع الإسلام بين الثبات على الدين، وحسن المعاملة مع الناس.

وفي الوقت نفسه، يقرر الإسلام أن التعايش لا يعني إلغاء الفوارق العقدية، ولا التنازل عن أصول الإيمان، بل يدعو إلى الحوار بالحكمة، وبيان الحق، واحترام الإنسان، دون إكراه أو ظلم. قال تعالى:

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل:125].

فالدعوة إلى الإسلام تقوم على البيان والإقناع، لا على الإكراه.

كما حث الإسلام على الوفاء بالعهود الدولية، واحترام المواثيق، وعدم نقضها إلا وفق الأحكام التي قررتها الشريعة. قال تعالى:

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:34].

فالوفاء بالعهد من المبادئ التي تحفظ الأمن والاستقرار في العلاقات بين الأفراد والدول.

ومن ثمار هذه المبادئ أن يعيش الناس في مجتمع يسوده العدل، ويحترم الحقوق، وتؤدى فيه الواجبات، ويستطيع أفراده التعاون في مصالح الحياة المشتركة، مع احتفاظ كل طرف بعقيدته وهويته. وهذا يسهم في تقليل أسباب الصراع، وتعزيز الأمن، وإرساء قواعد التعايش القائم على الاحترام المتبادل.

ومن تأمل هذه الأحكام وجد أن الإسلام يميز بين الاختلاف العقدي، وهو أمر يتعلق بالإيمان، وبين المعاملة الدنيوية، التي تبنى على العدل والإحسان والوفاء. وبهذا يقدم نموذجًا متوازنًا يحفظ للمسلم دينه، ويحفظ لغير المسلم حقوقه، ويقيم العلاقات على أساس من العدالة والأمانة.

خلاصة الفصل

قرر الإسلام لغير المسلمين حقوقًا تحفظ دماءهم، وأموالهم، وأعراضهم، وأوجب العدل والإحسان إليهم، والوفاء بالعهود والمواثيق، وأجاز التعامل معهم في المصالح المباحة، ودعا إلى الحوار بالحكمة، مع المحافظة على ثوابت العقيدة الإسلامية. وبهذه المبادئ أسهم الإسلام في بناء علاقات إنسانية تقوم على العدل، والاحترام، والتعايش المنضبط، وهو من أعظم ما تستفيده الإنسانية من هذا الدين.

الفصل الخامس

العدل في العلاقات بين الأمم والشعوب

لم تقتصر مبادئ الإسلام على تنظيم العلاقة بين الأفراد داخل المجتمع، بل امتدت لتشمل العلاقات بين الأمم والشعوب، فجاءت بتشريعات تؤسس لعالم يقوم على العدل، والوفاء، واحترام الحقوق، والتعاون على المصالح المشتركة، بعيدًا عن الظلم والعدوان والاستغلال. فالإسلام لا ينظر إلى القوة على أنها مبرر للهيمنة، ولا إلى الاختلاف بين الأمم على أنه سبب دائم للصراع، وإنما يجعل العدل أساسًا للعلاقات الإنسانية في جميع مستوياتها.

وقد أمر الله تعالى بالعدل أمرًا عامًا يشمل كل أحد، فقال سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل:90]،

وقال تعالى:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:8].

وهذه الآيات تقرر أن العدل واجب حتى مع من توجد بينهم وبين المسلمين خصومة أو خلاف، فلا يجوز أن يتحول العداء إلى ظلم أو اعتداء.

ومن المبادئ التي قررها الإسلام وجوب الوفاء بالعهود والمواثيق، سواء كانت بين الأفراد أو بين الدول، قال تعالى:

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:34].

فالوفاء بالعهد أساس لبناء الثقة بين الأمم، وسبب لاستقرار العلاقات، ومنع أسباب الغدر والخيانة.

كما نهى الإسلام عن العدوان، وجعل الأصل في العلاقات الدولية السلم ما لم يقع اعتداء يوجب الدفاع المشروع. قال تعالى:

﴿وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:190].

فالقتال في الإسلام ليس غاية، ولا وسيلة للتوسع أو الانتقام، وإنما يشرع في الأحوال التي بينها الشرع، مع الالتزام بالضوابط الأخلاقية والإنسانية.

ودعا الإسلام إلى التعارف والتعاون بين الشعوب فيما يحقق الخير والمصلحة، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات:13].

فاختلاف الأمم والثقافات ليس سببًا للتنازع، بل فرصة للتعارف، وتبادل المنافع، والتعاون في عمارة الأرض.

ومن صور العدل التي دعا إليها الإسلام احترام الحقوق المشروعة للأمم والشعوب، وعدم الاعتداء على ممتلكاتها أو مواردها أو سيادتها بغير حق، كما دعا إلى حل النزاعات بالوسائل المشروعة كلما أمكن ذلك، وإلى تقديم الصلح إذا كان يحقق العدل ويحفظ الحقوق.

كما حث الإسلام على التعاون في كل ما يحقق الخير العام، فقال تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة:2].

وهذا المبدأ يفتح المجال أمام الأمم للتعاون في مجالات العلم، والصحة، والإغاثة، وحماية البيئة، ومواجهة الكوارث، وكل ما يعود بالنفع على البشرية، مع عدم التعاون على الظلم أو العدوان.

ومن ثمار هذه المبادئ بناء علاقات دولية أكثر استقرارًا، تقوم على الثقة والاحترام المتبادل، وتحد من أسباب الحروب والصراعات، وتشجع على الحوار، والوفاء بالالتزامات، والتعاون في تحقيق المصالح المشتركة. وإذا التزمت الأمم بهذه القيم، أمكنها أن تعيش في قدر أكبر من الأمن والاستقرار.

ومن تأمل التشريع الإسلامي وجد أنه يوازن بين حفظ مصالح الأمة الإسلامية، واحترام حقوق الأمم الأخرى، فلا يبيح الظلم بحجة القوة، ولا يجيز نقض العهود بحجة المصلحة، بل يجعل العدل قيمة ثابتة لا تتغير بتغير الأطراف أو الظروف.

وهكذا يقدم الإسلام تصورًا أخلاقيًا للعلاقات بين الأمم، يقوم على العدل، والوفاء، والاحترام، والتعاون، ويجعل هذه المبادئ أساسًا لبناء عالم أكثر أمنًا وإنصافًا، وهو ما تستفيد منه الإنسانية جمعاء إذا التزمت بهذه القيم.

خلاصة الفصل

أقام الإسلام العلاقات بين الأمم والشعوب على مبادئ العدل، والوفاء بالعهود، واحترام الحقوق، والتعاون على الخير، ومنع العدوان، وحث على التعارف والحوار والصلح كلما أمكن. وبهذه المبادئ يقدم الإسلام إطارًا أخلاقيًا يسهم في تحقيق الأمن والاستقرار، ويعزز الثقة والتعاون بين الشعوب، وهو من أبرز ما تستفيده الإنسانية من هذا الدين.

الفصل السادس

السلم والحرب في الإسلام وحماية الأبرياء

يهدف الإسلام إلى إقامة الحياة على أساس الأمن والسلام والعدل، ولذلك كان الأصل في العلاقات بين الناس هو السلم، لا الحرب. وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه **السلام،** وجعل تحية المسلمين فيما بينهم السلام، ووعد أهل الجنة بدار السلام، مما يدل على أن السلام قيمة أصيلة في الإسلام، وأن الحرب ليست غاية في ذاتها، وإنما استثناء تفرضه ظروف معينة لحماية الحقوق، ودفع العدوان، وصيانة الأمن.

وقد دعا الإسلام إلى السلم متى كان يحقق العدل ويحفظ الحقوق، فقال تعالى:

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال:61].

فهذه الآية تبين أن الإسلام لا يرفض السلام، بل يأمر بقبوله إذا كان قائمًا على الصدق، ويحقق المصلحة المشروعة.

وفي المقابل، لم يمنع الإسلام من القتال إذا وقع عدوان أو ظلم، بل أذن به للدفاع عن النفس، وحماية المظلومين، ورد المعتدين، قال تعالى:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:190].

فهذه الآية تجمع بين مشروعية الدفاع، وتحريم العدوان، لتؤكد أن القتال في الإسلام مقيد بضوابط أخلاقية وقانونية، وليس مفتوحًا بلا حدود.

ومن أهم هذه الضوابط تحريم الاعتداء على غير المقاتلين، فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء، والأطفال، وكبار السن، والرهبان الذين لا يشاركون في القتال، كما نهى عن الغدر، والتمثيل بالقتلى، وإفساد الزروع، وإتلاف الأموال بغير حاجة عسكرية مشروعة. وهذه الأحكام تبين أن الإسلام يفرق بين من يشارك في القتال ومن لا يشارك فيه، ويحرص على تقليل آثار الحرب ما أمكن.

كما أمر الإسلام بحسن معاملة الأسرى، فقال تعالى:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان:8].

وقد عرف التاريخ الإسلامي صورًا متعددة من الإحسان إلى الأسرى، وإطلاق سراحهم مقابل الفداء أو بغير مقابل في بعض الأحوال، بما يحقق المصلحة والرحمة.

ونهى الإسلام عن الغدر ونقض العهود، حتى في أوقات الحرب، وأوجب الوفاء بالمواثيق ما دام الطرف الآخر ملتزمًا بها، قال تعالى:

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:34].

فالوفاء قيمة ثابتة لا تسقط بمجرد وجود الخلاف أو النزاع.

ومن مقاصد القتال في الإسلام إزالة العدوان، وتمكين الناس من العيش في أمن، وحماية حرية الدعوة إلى الله، لا إكراه الناس على الدخول في الإسلام. وقد سبق أن قرر القرآن الكريم هذا الأصل بقوله:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة:256].

فالإيمان لا يصح إلا عن اقتناع واختيار، ولذلك لا يكون القتال وسيلة لفرض العقيدة على الناس.

ومن آثار هذه المبادئ أنها تحد من ويلات الحروب، وتحفظ أرواح الأبرياء، وتمنع تحول النزاعات إلى أعمال انتقامية أو فوضى لا ضابط لها. كما تؤكد أن حتى في أوقات الصراع تبقى القيم الأخلاقية والإنسانية حاضرة، فلا يباح كل شيء بحجة الحرب.

وقد أثرت هذه الأحكام في بناء تصور متوازن للعلاقات الدولية، يجمع بين السعي إلى السلام، والاستعداد للدفاع عن الحقوق، والالتزام بالعدل في جميع الأحوال. وهذا التوازن يحول دون الاستسلام للعدوان من جهة، ويمنع العدوان على الآخرين من جهة أخرى.

ومن تأمل هذه التشريعات وجد أن الإسلام لا يمجد الحرب، ولا يجعلها الأصل في علاقة الأمم، وإنما يعدها وسيلة استثنائية تضبطها الضرورة، وتحكمها الأخلاق، وتنتهي بانتهاء أسبابها. أما الأصل فهو السلم، والعدل، والوفاء، والتعاون على الخير.

خلاصة الفصل

جعل الإسلام الأصل في العلاقات بين الأمم هو السلم، وأجاز القتال في حالات مشروعة، أهمها دفع العدوان وحماية الحقوق، ووضع للحرب ضوابط دقيقة تحفظ كرامة الإنسان، وتحرم الاعتداء على غير المقاتلين، وتأمر بالوفاء بالعهود، والإحسان إلى الأسرى، ومنع الغدر والتمثيل. وبهذه المبادئ قدم الإسلام تصورًا متوازنًا يحقق الأمن، ويحد من ويلات الحروب، ويحمي الأبرياء، وهو من أعظم ما تستفيده الإنسانية من هذا الدين.

الفصل السابع

محاربة العنصرية والتمييز وترسيخ مبدأ المساواة الإنسانية

من أعظم ما قدمه الإسلام للبشرية أنه حارب جميع صور العنصرية والتمييز التي تفرق بين الناس بسبب أجناسهم، أو ألوانهم، أو أنسابهم، أو أوطانهم، وأقام العلاقات الإنسانية على أساس وحدة الأصل الإنساني، والعدل، والتقوى، والعمل الصالح. وبذلك وضع مبدأً عظيمًا يسهم في بناء مجتمعات يسودها الاحترام المتبادل، وتتراجع فيها أسباب الكراهية والصراع.

وقد قرر القرآن الكريم أن جميع البشر يرجعون إلى أصل واحد، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:13].

فبين أن اختلاف الشعوب والقبائل ليس سببًا للتفاخر أو التمييز، وإنما وسيلة للتعارف والتعاون، وأن معيار التفاضل الحقيقي هو التقوى، لا الجنس، ولا اللون، ولا النسب، ولا الثروة.

وأكد النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى في خطبة الوداع، فقال:

{يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى} رواه أحمد، وصححه الألباني.

فهذا الإعلان يمثل قاعدة جامعة في نبذ العصبية، وترسيخ المساواة الإنسانية في أصل الكرامة والحقوق.

ولهذا حرم الإسلام كل ما يغذي العصبية الجاهلية، ونهى عن الافتخار بالأنساب، أو احتقار الناس لألوانهم أو أجناسهم، أو السخرية منهم، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ [الحجرات:11].

كما نهى عن التنابز بالألقاب، واللمز، والغيبة، وكل ما يهين الإنسان أو يحط من كرامته.

ولم يقتصر الإسلام على الدعوة النظرية إلى المساواة، بل جسدها في أحكامه وتطبيقاته، فجعل الناس سواء أمام القضاء، وسواء في أصل التكليف الشرعي، وسواء في استحقاق العدل، فلا يفضل أحد على أحد بسبب نسبه أو منصبه أو قوته أو ماله. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

{لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها} متفق عليه،

تأكيدًا على أن العدالة لا تعرف التمييز.

كما أتاح الإسلام لأصحاب الكفاءة والفضل أن يتولوا المسؤوليات دون اعتبار لأصولهم أو ألوانهم، وقد عرف التاريخ الإسلامي نماذج كثيرة من العلماء، والقادة، والقضاة، الذين بلغوا أرفع المنازل مع اختلاف أجناسهم وأوطانهم، مما يدل على أن معيار التقدم في الحضارة الإسلامية كان قائمًا على العلم، والأمانة، والكفاءة.

ومن ثمار هذا المبدأ أنه يحد من أسباب الصراعات العرقية، ويقوي روح الأخوة الإنسانية، ويجعل التعاون بين الشعوب قائمًا على الاحترام المتبادل، لا على الشعور بالتفوق أو الاستعلاء. كما يغرس في النفوس أن قيمة الإنسان الحقيقية بما يحمله من إيمان، وما يقدمه من عمل نافع، لا بما ورثه من نسب أو لون أو قومية.

ولا يعني هذا إلغاء التنوع بين البشر، فالإسلام يقر بأن اختلاف اللغات، والثقافات، والأعراق، من سنن الله في خلقه، قال تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ [الروم:22].

لكنه يجعل هذا التنوع وسيلة للتعارف والتكامل، لا للتنازع والتمييز.

ومن تأمل واقع العالم وجد أن كثيرًا من النزاعات، وألوان الظلم، وأشكال الاستغلال، ترجع إلى التعصب العرقي أو القومي أو الطبقي. ومن هنا تظهر أهمية المبادئ التي جاء بها الإسلام، إذ تقدم أساسًا أخلاقيًا متينًا لبناء مجتمعات أكثر عدلًا، وأكثر احترامًا لإنسانية الإنسان، بعيدًا عن جميع صور العنصرية والكراهية.

وبذلك يسهم الإسلام في ترسيخ مبدأ المساواة الإنسانية، ويجعل الناس شركاء في أصل الكرامة والحقوق، مع بقاء التفاضل الحقيقي قائمًا على التقوى والعمل الصالح. وهذا من أعظم ما تستفيده البشرية من رسالة الإسلام، لما يحققه من عدل، ووئام، وتعاون بين الناس.

خلاصة الفصل

حارب الإسلام جميع صور العنصرية والتمييز، وأكد وحدة الأصل الإنساني، وجعل التفاضل بين الناس بالتقوى والعمل الصالح، لا بالجنس أو اللون أو النسب أو القومية. كما نهى عن العصبية والسخرية والاحتقار، وأقام العدل بين الناس دون تمييز، فقدم للبشرية منهجًا يعزز المساواة، ويحفظ الكرامة، ويقوي روح الأخوة والتعايش، وهو من أبرز ما تستفيده الإنسانية من هذا الدين.

خاتمة الباب الخامس

يتبين من خلال هذا الباب أن رسالة الإسلام لا تقتصر على إصلاح الفرد، أو بناء الأسرة، أو تنظيم شؤون المجتمع، بل تمتد آثارها إلى الإنسانية كلها؛ لأنها تقوم على مبادئ عامة تخاطب الإنسان من حيث هو إنسان، وتعمل على حفظ كرامته، وصيانة حقوقه، وإقامة العدل، ونشر الرحمة، ومحاربة الظلم والتمييز، وبناء العلاقات بين الشعوب والأمم على أسس من الإنصاف والتعاون.

وقد رأينا أن الإسلام قرر تكريم الإنسان ابتداءً، وجعل الكرامة الإنسانية أصلًا ثابتًا، ثم أحاط هذه الكرامة بمنظومة من الحقوق والواجبات التي تحفظ النفس، والعقل، والعرض، والمال، وتوازن بين حرية الفرد ومسؤوليته. كما منح المرأة حقوقها، وصان مكانتها، وأقام العلاقة بين الرجل والمرأة على أساس العدل والتكامل، لا الصراع والتنافس.

وتبين كذلك أن الإسلام لم يجعل الاختلاف في الدين سببًا لإهدار الحقوق أو نقض العدل، بل دعا إلى الإحسان، والوفاء، واحترام العهود، وأرسى قواعد للتعايش المنضبط الذي يحفظ لكل طرف حقوقه مع بقاء كل أمة على عقيدتها وهويتها. كما وضع أسسًا أخلاقية للعلاقات بين الأمم، تقوم على العدل، والوفاء، والتعاون، وتمنع العدوان والاستغلال.

ورأينا أيضًا أن الإسلام جعل السلم هو الأصل، ولم يشرع الحرب إلا في أحوال محددة تضبطها مبادئ العدل والرحمة، مع حماية غير المقاتلين، وصيانة الكرامة الإنسانية، والوفاء بالعهود، والإحسان حتى في أوقات النزاع. كما حارب جميع صور العنصرية والتمييز، وأعلن أن البشر جميعًا من أصل واحد، وأن التفاضل الحقيقي إنما يكون بالتقوى والعمل الصالح.

ومن تأمل هذه المبادئ وجد أنها لا تخدم المسلمين وحدهم، بل تحمل خيرًا للبشرية جمعاء؛ لأنها تعالج قضايا إنسانية مشتركة، مثل حفظ الكرامة، وصيانة الحقوق، وتحقيق العدل، ونبذ الكراهية، وإقامة التعاون بين الشعوب، وهي قيم تحتاج إليها المجتمعات في كل زمان ومكان.

وهكذا يظهر أن الإسلام ليس رسالة خاصة بقوم أو أمة، بل رسالة عالمية أراد الله بها هداية الناس وإصلاح حياتهم، وإقامة مجتمع إنساني أكثر عدلًا ورحمةً واستقرارًا. وكلما اقترب الناس من هذه المبادئ، ازدادوا أمنًا، وتعاونًا، وإنصافًا، وابتعدوا عن أسباب الظلم، والصراع، والتمييز.

وبهذا يكتمل بيان ما يستفيده الإنسان من الإسلام في مختلف دوائر حياته؛ من نفسه، وعبادته، وأسرته، ومجتمعه، وعلاقته بالإنسانية كلها، ليبقى السؤال الذي بدأ به هذا الكتاب قد اتضحت إجابته: إن الإسلام ليس عبئًا على الإنسان، بل هو هداية من الله، ومنهج حياة، ورحمة واسعة، ومصدر خير وصلاح في الدنيا، وفوز وسعادة في الآخرة لمن آمن به واتبع هداه.

ويأتي الباب التالي ليتناول جانبًا آخر من جوانب هذا الخير، وهو: ماذا تستفيد المخلوقات الأخرى من الإسلام، من حيوان ونبات وبيئة بوجه عام، وكيف تظهر رحمة الإسلام وعدله في حفظ الكون كله وصيانة عناصره.

الباب السادس

ماذا تستفيد المخلوقات الأخرى من الإسلام؟

الفصل الأول

حقوق الحيوان والرحمة به في الإسلام

الفصل الثاني

حماية البيئة والمحافظة على نظافة الأرض

الفصل الثالث

عمارة الأرض والإصلاح فيها

الفصل الرابع

المحافظة على الماء والنبات والموارد الطبيعية

الفصل الأول

حقوق الحيوان والرحمة به في الإسلام

لم تقتصر رحمة الإسلام على الإنسان، بل شملت الحيوان وسائر المخلوقات، فجعل الإسلام للحيوان حقوقًا يجب مراعاتها، ونهى عن ظلمه أو تعذيبه أو تحميله ما لا يطيق، وعدَّ الإحسان إليه من الأعمال الصالحة التي يثاب عليها الإنسان. وهذا من مظاهر شمول الشريعة، واتساع رحمتها، إذ لم تغفل حق مخلوق من مخلوقات الله.

وقد قرر القرآن الكريم أن الحيوانات أمم مثل البشر في أصل كونها مخلوقات لله تعالى، فقال سبحانه:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأنعام:38].

وهذه الآية تدعو إلى احترام هذه المخلوقات، والنظر إليها باعتبارها جزءًا من عالم خلقه الله بحكمة، لا مجرد أدوات لا قيمة لها.

وقد امتلأت السنة النبوية بالتوجيهات التي تؤكد الرحمة بالحيوان، فمن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم:

{في كل كبدٍ رطبة أجر} متفق عليه،

وهو أصل عظيم في بيان أن الإحسان إلى كل حيوان فيه أجر وثواب. كما أخبر صلى الله عليه وسلم عن رجل غفر الله له لأنه سقى كلبًا كان يلهث من شدة العطش، وأخبر عن امرأة دخلت النار في هرة حبستها، فلا هي أطعمتها، ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض. وفي هذين الحديثين بيان واضح أن معاملة الحيوان ليست أمرًا هامشيًا، بل لها أثر في ثواب الإنسان وعقابه.

ومن حقوق الحيوان في الإسلام توفير الطعام والشراب له إذا كان في ملك الإنسان أو تحت رعايته، وعدم تركه يتعرض للجوع أو العطش أو الهلاك. كما يجب العناية به إذا مرض، وإراحته إذا تعب، وعدم تكليفه فوق طاقته، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن إرهاق الدواب، وأمر بالإحسان إليها في استخدامها.

كما نهى الإسلام عن تعذيب الحيوانات أو إيذائها بغير حق، فحرم اتخاذها هدفًا للرمي، أو تعذيبها بالنار، أو قتلها عبثًا من غير حاجة مشروعة، أو العبث بها للتسلية. فالحيوان مخلوق له حرمة، ولا يجوز الاعتداء عليه لمجرد اللهو أو التسلية، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

{دخلت امرأة النار في هرة حبستها، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض} متفق عليه.

وإذا أبيح الانتفاع بالحيوان في الطعام أو غيره مما أذن الله به، فإن الإسلام أوجب الإحسان حتى في الذبح، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

{إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته} رواه مسلم.

وهذا يدل على أن الرحمة لا تسقط حتى عند الحاجة إلى الذبح المشروع، بل تبقى مبدأً حاضرًا في جميع الأحوال.

كما دعا الإسلام إلى المحافظة على الحيوانات النافعة، ورعاية ما يحتاج إليه الناس منها في الزراعة، والرعي، والنقل، وغيرها من المصالح، وجعل حسن التعامل معها من الأخلاق الفاضلة التي يتحلى بها المؤمن.

ولم يقف اهتمام الإسلام عند الحيوانات الأليفة، بل شمل الحيوانات البرية والطيور وسائر الكائنات، فنهى عن إفساد مواطنها بغير حاجة، وعن قتل ما لا يجوز قتله، وأمر بالاعتدال في الانتفاع بما خلق الله، حتى يبقى التوازن الذي أودعه الله في الكون.

ومن تأمل هذه الأحكام وجد أنها تربي الإنسان على الرحمة، وتمنعه من القسوة، وتغرس في نفسه الشعور بالمسؤولية تجاه كل كائن حي. فالذي يعتاد الرحمة بالحيوان يكون أقدر على الرحمة بالإنسان، ولذلك كانت الرحمة خلقًا جامعًا يشمل جميع المخلوقات.

كما أن المحافظة على الحيوان تحقق مصالح كثيرة للإنسان نفسه، فالحيوانات جزء من التوازن البيئي، وتسهم في استمرار الحياة، وتؤدي أدوارًا مهمة في الغذاء،

والزراعة، والاقتصاد، والبيئة. ومن ثم فإن رعايتها ليست مجرد إحسان إليها، بل هي أيضًا إحسان إلى الإنسان وإلى الأجيال القادمة.

ومن هنا يتبين أن الإسلام سبق إلى تقرير حقوق الحيوان، وربطها بالإيمان والأخلاق، وجعل الإحسان إليه سببًا للأجر، والاعتداء عليه سببًا للإثم، وبذلك قدم للبشرية نموذجًا متوازنًا في التعامل مع سائر الكائنات الحية، يقوم على الرحمة، والعدل، والاعتدال.

خلاصة الفصل

قرر الإسلام للحيوان حقوقًا تحفظ حياته وتصون كرامته، فأوجب إطعامه وسقيه، والرفق به، ومنع تعذيبه أو قتله بغير حق، وأمر بالإحسان إليه حتى عند الذبح المشروع، وجعل الرحمة بالحيوان سببًا للأجر والثواب. وبهذه التعاليم أسهم الإسلام في ترسيخ ثقافة الرحمة بجميع الكائنات الحية، وهو من أعظم ما تستفيده المخلوقات الأخرى، كما يعود خيره على الإنسان والبيئة معًا.

الفصل الثاني

حماية البيئة والمحافظة على نظافة الأرض

لم يقتصر اهتمام الإسلام على إصلاح الإنسان في نفسه ومجتمعه، بل امتد ليشمل البيئة التي يعيش فيها، فجاء بتوجيهات وأحكام تحفظ نظافة الأرض، وتصون عناصر البيئة من الإفساد والتلوث، وتربي الإنسان على الشعور بالمسؤولية تجاه العالم الذي استخلفه الله فيه. ومن ثم فإن المحافظة على البيئة ليست في الإسلام قضية عصرية فحسب، بل هي قيمة شرعية وأخلاقية أصيلة.

وقد نهى الله تعالى عن الإفساد في الأرض، فقال سبحانه:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:56]،

وقال عز وجل:

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة:205].

وهذه النصوص تدل على أن الأصل هو إصلاح الأرض والمحافظة عليها، وأن كل ما يؤدي إلى تخريبها أو الإضرار بها داخل في معنى الفساد المنهي عنه بحسب نوعه وقدره.

ومن صور المحافظة على البيئة التي دعا إليها الإسلام العناية بالنظافة، فقد جعل الطهارة شرطًا لصحة كثير من العبادات، وحث على نظافة البدن، والثياب، والمساكن، والطرقات، والأماكن العامة. كما نهى عن كل ما يؤذي الناس أو يلوث البيئة التي يعيشون فيها، وعدَّ إزالة الأذى من الطريق من شعب الإيمان، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

{الإيمان بضع وسبعون شعبة... وأدناها إماطة الأذى عن الطريق} متفق عليه.

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تلويث مصادر المياه والأماكن التي ينتفع بها الناس، فقال:

{اتقوا اللعانين}، قالوا: وما اللعانان يا رسول الله؟ قال: **{الذي يتخلى في طريق الناس أو في ظلهم}** رواه مسلم.

وفي هذا توجيه إلى المحافظة على نظافة المرافق العامة، ومنع كل ما يسبب الضرر أو الأذى للناس.

كما دعا الإسلام إلى الاعتدال في استعمال الموارد، ونهى عن الإسراف، فقال تعالى:

﴿وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام:141].

والإسراف في استهلاك الموارد الطبيعية، أو إهدارها بغير حاجة، من الأسباب التي تؤدي إلى الإضرار بالبيئة واستنزاف خيراتها، ولذلك جاءت الشريعة بالتوجيه إلى الاقتصاد والاعتدال.

ومن تأمل مقاصد الشريعة وجد أنها تقوم على جلب المصالح ودرء المفاسد، ولا شك أن المحافظة على البيئة تحقق مصالح عظيمة للإنسان ولغيره من المخلوقات، فهي تحفظ الصحة، وتوفر أسباب الحياة، وتحافظ على التوازن الذي أوجده الله في الكون، بينما يؤدي الإفساد البيئي إلى أضرار واسعة تمس الإنسان والحيوان والنبات.

كما يغرس الإسلام في النفس الشعور بأن البيئة أمانة، وأن الإنسان مستخلف في الأرض، وليس مالكًا لها يتصرف فيها كيف يشاء. ومن ثم فإن عليه أن ينتفع بخيراتها انتفاعًا مشروعًا، وأن يتركها صالحة لمن يأتي بعده، دون إفساد أو استنزاف أو إضرار.

وتظهر هذه النظرة المتوازنة في الجمع بين الإذن بالانتفاع بما في الأرض من خيرات، وبين النهي عن الإفساد والإسراف، فلا يدعو الإسلام إلى تعطيل الانتفاع بالموارد، ولا يبيح استغلالها بلا حدود، وإنما يوجه إلى حسن إدارتها، وتحقيق المصلحة مع المحافظة على سلامة البيئة.

ومن آثار هذه التعاليم بناء مجتمعات أكثر نظافة وصحة، والحد من أسباب التلوث، وحماية الموارد الطبيعية، وتعزيز الشعور بالمسؤولية الجماعية تجاه البيئة. كما تسهم في ترسيخ ثقافة الإصلاح بدل الإفساد، والعناية بالمرافق العامة، واحترام حق الآخرين في بيئة سليمة.

ومن هنا يتبين أن الإسلام سبق إلى تقرير مبادئ عامة لحماية البيئة، تقوم على الطهارة، والنظافة، ومنع الإضرار، والاعتدال في الانتفاع، والنهي عن الفساد. وهي مبادئ إذا التزم بها الناس، انعكس أثرها خيرًا على الإنسان، والحيوان، وسائر عناصر الحياة.

خلاصة الفصل

دعا الإسلام إلى حماية البيئة والمحافظة على نظافة الأرض، ونهى عن الإفساد والتلوث والإسراف، وحث على الطهارة، وإزالة الأذى، وصيانة المرافق العامة، والانتفاع الرشيد بموارد الأرض. وبذلك أسهم في ترسيخ مسؤولية الإنسان تجاه البيئة، تحقيقًا لمصلحة الحاضر، وحفاظًا على حق الأجيال القادمة، وهو من أبرز ما تستفيده المخلوقات من تعاليم هذا الدين.

الفصل الثالث

عمارة الأرض والإصلاح فيها

جعل الإسلام الإنسان خليفةً في الأرض، وأناط به مسؤولية عظيمة تتمثل في عمارتها، واستثمار خيراتها، والإصلاح فيها، لا الإفساد والتخريب. ولذلك لم ينظر إلى العمل والإنتاج والبناء على أنها أمور دنيوية مجردة، بل جعلها من الأعمال التي يثاب عليها الإنسان إذا قصد بها الخير، والتزم فيها بأحكام الله تعالى. وبهذا أسهم الإسلام في بناء حضارة تقوم على العمل النافع، والإنتاج، وتحقيق مصالح الناس.

وقد أخبر الله تعالى عن هذه المهمة بقوله:

﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:61]،

أي طلب منكم عمارتها وإصلاحها. فالإنسان لم يخلق ليكون عنصرًا معطلًا أو مفسدًا، وإنما ليقوم بدوره في تنمية الأرض، واستثمار ما أودع الله فيها من الخيرات، بما يحقق النفع له ولغيره.

ولهذا دعا الإسلام إلى العمل والكسب المشروع، وحث على الزراعة، والتجارة، والصناعة، وسائر المهن النافعة، وعدَّ السعي في تحصيل الرزق الحلال عبادة إذا اقترن بالإخلاص وحسن النية. فبناء الحضارات، وإقامة المصالح، وتوفير أسباب الحياة الكريمة، كلها من صور عمارة الأرض التي يحبها الله.

ومن أعظم ما يغرسه الإسلام في هذا الباب احترام قيمة العمل، فلا يفرق بين الأعمال الشريفة النافعة، بل يكرم كل عمل مشروع يسهم في خدمة الناس وإصلاح الحياة. وقد كان الأنبياء عليهم السلام يعملون ويكتسبون، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحث على الكسب من عمل اليد، مما يدل على مكانة العمل في الإسلام.

كما دعا الإسلام إلى الإتقان في جميع الأعمال، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

{إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه}[5].

---

[5] رواه أبو يعلى في *مسنده*، والبيهقي في *شعب الإيمان*، وحسنه الألباني

فالإتقان يؤدي إلى جودة الإنتاج، وحسن الأداء، وتحقيق المنافع، ويحد من الهدر والفساد، وهو أساس من أسس تقدم الأمم وازدهارها.

ولم يجعل الإسلام عمارة الأرض مقصورة على البناء المادي، بل تشمل أيضًا الإصلاح الأخلاقي، والعلمي، والاجتماعي، والاقتصادي. فكل عمل يحقق خيرًا للناس، أو يدفع عنهم ضررًا، أو يزيد الحياة صلاحًا، فهو داخل في معنى عمارة الأرض، وكل عمل يؤدي إلى الظلم أو الفساد أو التخريب يناقض هذا المقصد العظيم.

كما حث الإسلام على المبادرة إلى الأعمال النافعة وعدم اليأس من الإصلاح، حتى في أصعب الظروف، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

{إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليفعل} رواه أحمد.

وفي هذا توجيه بليغ إلى أن العمل النافع له قيمة في ذاته، وأن المسلم يبقى عنصرًا إيجابيًا يسعى إلى البناء والإصلاح ما استطاع.

ومن ثمار هذا المنهج أن تنشأ مجتمعات تقدر العلم والعمل، وتشجع الإنتاج، وتحارب الكسل والإهمال، وتسعى إلى تنمية الموارد، وتحقيق الاكتفاء، وخدمة الإنسان، مع المحافظة على القيم الأخلاقية التي تمنع الظلم والاستغلال والإفساد.

كما يسهم هذا التصور في تحقيق التوازن بين الانتفاع بخيرات الأرض والمحافظة عليها، فلا يكون التقدم على حساب البيئة، ولا يكون الحفاظ على البيئة سببًا في تعطيل مصالح الناس، بل يجمع الإسلام بين التنمية الرشيدة، والإصلاح، والاعتدال.

ومن تأمل تاريخ الحضارة الإسلامية وجد أن هذه المبادئ كانت من دوافع النهضة في مجالات الزراعة، والهندسة، والطب، والصناعة، والعلوم المختلفة، إذ نظر المسلمون إلى الاكتشاف، والتعليم، والإنتاج، والإبداع، على أنها وسائل لتحقيق الاستخلاف الذي أراده الله لعباده.

خلاصة الفصل

جعل الإسلام عمارة الأرض والإصلاح فيها من مسؤوليات الإنسان الكبرى، فدعا إلى العمل، والإنتاج، والإتقان، واستثمار خيرات الأرض فيما ينفع الناس، ونهى عن الفساد والتخريب. وبهذا أسهم في بناء حضارة تقوم على العلم والعمل والأخلاق، وتحقق الخير للإنسان وللمخلوقات جميعًا، وهو من أعظم ما تستفيده الأرض ومن عليها من هداية الإسلام.

الفصل الرابع

المحافظة على الماء والنبات والموارد الطبيعية

من نعم الله العظيمة على خلقه ما أودعه في الأرض من مياه، ونباتات، وأشجار، ومعادن، وسائر الموارد التي تقوم عليها حياة الإنسان والحيوان. وقد جاء الإسلام بتوجيهات ترشد إلى حسن الانتفاع بهذه النعم، والمحافظة عليها، ومنع إهدارها أو إفسادها، تحقيقًا لمصلحة الحاضر، وحفظًا لحقوق الأجيال القادمة.

وقد امتن الله تعالى على عباده بالماء، وجعله أصل الحياة، فقال سبحانه:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:30].

ولأهمية الماء نهى الإسلام عن تلويثه أو إفساده، كما حث على الاقتصاد في استعماله، حتى في حال توفره. فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوضأ بقدر يسير من الماء، وفي حديث أنس رضي الله عنه :

{كان النبي ﷺ يتوضأ بالمُد، ويغتسل بالصاع إلى خمسة أمداد} متفق عليه،

وهو دليل صحيح وصريح على الاقتصاد في استعمال الماء .وفي هذا توجيه إلى أن المحافظة على الموارد لا ترتبط بندرتها فحسب، بل هي خلق دائم يربي الإنسان على الاعتدال.

كما اهتم الإسلام بالنبات والأشجار، وعد غرسها من الأعمال الصالحة التي يمتد نفعها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

{ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا، فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان له به صدقة} متفق عليه.

وهذا يدل على أن تنمية الحياة النباتية ليست مجرد نشاط اقتصادي، بل عمل يؤجر عليه المسلم لما فيه من نفع عام.

ونهى الإسلام عن إتلاف الأشجار والزروع بغير حاجة، وأرشد إلى المحافظة على الغطاء النباتي، لما له من أثر في استمرار الحياة، وحماية التربة، وتوفير الغذاء،

وتحقيق التوازن البيئي. وقد ظهرت هذه العناية حتى في أحكام الحرب، حيث نُهي عن الإفساد غير المشروع في الأرض وإتلاف ما لا تدعو إليه ضرورة معتبرة.

ولم تقتصر توجيهات الإسلام على الماء والنبات، بل شملت جميع الموارد الطبيعية، فأمر بحسن استثمارها، ومنع إضاعتها أو احتكارها بغير حق، ونهى عن الإسراف والتبذير، قال تعالى:

﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء:26-27].

فكل مورد أنعم الله به على عباده ينبغي أن يستعمل فيما ينفع، بعيدًا عن الإفساد والإهدار.

كما يغرس الإسلام في النفس أن الإنسان ليس مالكًا مطلقًا لهذه النعم، وإنما هو مستخلف فيها، مسؤول عن حسن إدارتها والانتفاع بها وفق ما يرضي الله تعالى. وهذا الشعور بالاستخلاف يدفع إلى المحافظة على الموارد، واستعمالها بحكمة، وتجنب كل ما يؤدي إلى استنزافها أو إفسادها.

ومن ثمار هذه التعاليم تحقيق التوازن بين التنمية والمحافظة على البيئة، واستمرار الموارد التي تقوم عليها حياة البشر وسائر المخلوقات. فإذا التزم الناس بالاعتدال، وأحسنوا استثمار ما في الأرض من نعم، أمكنهم أن يحققوا التنمية دون الإضرار بالكون الذي يعيشون فيه.

كما تسهم هذه المبادئ في ترسيخ ثقافة المسؤولية، والاقتصاد في الاستهلاك، واحترام النعم، وشكر المنعم سبحانه بحسن الانتفاع بما وهب، لا بإضاعته أو الإسراف فيه. وبذلك تصبح المحافظة على الموارد الطبيعية جزءًا من السلوك اليومي للمسلم، لا مجرد استجابة لظروف طارئة.

ومن تأمل هذه الأحكام وجد أن الإسلام سبق إلى تقرير مبادئ عامة في حماية الموارد الطبيعية، تقوم على الاعتدال، والإصلاح، والتنمية، والشكر، والمسؤولية، وهي مبادئ لا يزال العالم اليوم بحاجة إليها لمواجهة كثير من التحديات البيئية والاقتصادية.

خلاصة الفصل

دعا الإسلام إلى المحافظة على الماء، والنبات، وسائر الموارد الطبيعية، وحث على الاقتصاد في استعمالها، وتنميتها، ومنع إفسادها أو إهدارها، وجعل غرس الأشجار، وإحياء الأرض، وحسن استثمار النعم من الأعمال الصالحة. وبهذه التوجيهات يسهم الإسلام في حماية البيئة، وتحقيق التنمية الرشيدة، وضمان استمرار خيرات الأرض للإنسان ولسائر المخلوقات.

خاتمة الباب السادس

بعد أن تبين ما يستفيده الفرد، والأسرة، والمجتمع، والإنسانية، ثم ما تستفيده سائر المخلوقات من الإسلام، يظهر بجلاء أن هذا الدين لم يأتِ لتنظيم جانب واحد من جوانب الحياة، بل جاء بمنهج شامل تمتد آثاره إلى كل ما يحيط بالإنسان. فهو يدعو إلى الرحمة بالحيوان، والمحافظة على البيئة، وعمارة الأرض، وحسن الانتفاع بالموارد، ويجعل الإنسان مسؤولًا عن كل ما استخلفه الله فيه.

وقد رأينا أن الإسلام لا ينظر إلى الكون على أنه مادة للاستهلاك والإفساد، وإنما يعده أمانة ينبغي أن تُصان، وأن تستثمر فيما يحقق الخير، وأن تُسلَّم للأجيال اللاحقة وهي أقرب إلى الإصلاح منها إلى الفساد. ومن هنا ارتبطت العبادة في الإسلام بالمسؤولية، وارتبط الإيمان بالإحسان، وارتبط الاستخلاف بعمارة الأرض.

ومع ذلك، فإن هذه الثمار كلها لا تعني أن الدنيا ستصبح دارًا يخلو فيها الإنسان من كل نقص، أو أن تطبيق الإسلام يجعل الحياة خالية من المرض، أو الفقر، أو المصائب، أو الظلم الذي قد يقع من البشر. فالدنيا لم تُخلق لتكون دار الجزاء الكامل، وإنما هي دار ابتلاء وعمل، يختبر الله فيها عباده، ويجري عليهم سننه الكونية، ويجعل لهم من أسباب الخير ما يعينهم على أداء رسالتهم، دون أن يرفع عنهم طبيعة الحياة الدنيا بما فيها من مشقة وتفاوت.

ومن هنا تبرز أهمية الانتقال إلى الباب التالي، الذي يعالج سؤالًا قد يرد على ذهن القارئ بعد استعراض هذه الفوائد الكثيرة، وهو: **إذا كان الإسلام يحقق كل هذه المصالح، فلماذا لا نجد الكمال في الدنيا؟ ولماذا تبقى المعاناة، وتستمر المشكلات، ويقع الظلم، ويبتلى الناس بالمصائب؟**

وسيجيب الباب السابع عن هذا السؤال من خلال بيان حقيقة الدنيا، وسنن الله فيها، وحدود ما يحققه التشريع في عالم الابتلاء، حتى تكتمل الصورة، ويزول الوهم بأن منافع الإسلام تعني أن الحياة الدنيوية ستصبح جنةً لا نقص فيها. فالكمال المطلق إنما ادخره الله لعباده المؤمنين في الدار الآخرة، أما الدنيا فهي مزرعة الآخرة، ودار السعي والاختبار، وفي ذلك من الحكمة ما يظهر لمن تأمل هداية الله وتشريعه.

الباب السابع

لماذا لا يتحقق الكمال في الدنيا؟

الفصل الأول

طبيعة الإنسان بين الخير والضعف

بعد أن تبين في الأبواب السابقة ما يحققه الإسلام من مصالح عظيمة للفرد، والأسرة، والمجتمع، والإنسانية، وسائر المخلوقات، قد يتساءل بعض الناس: إذا كانت هذه الفوائد كلها حقًّا، فلماذا لا يخلو العالم من الظلم، ولا تنعدم المشكلات، ولا يصبح الناس جميعًا صالحين بمجرد وجود الإسلام؟

والجواب أن هذا السؤال ينطلق من تصورٍ يحتاج إلى تصحيح؛ فالإسلام لم يعد الناس بأن يجعلهم ملائكة، ولم يأتِ ليبدل طبيعة الإنسان التي خلقه الله عليها، وإنما جاء ليهديه، ويزكيه، ويقوده إلى الخير، ويعينه على مجاهدة نفسه، ويضع له المنهج الذي يحقق به صلاحه في الدنيا وفوزه في الآخرة.

لقد خلق الله الإنسان متميزًا بالعقل والإرادة والاختيار، وجعله مسؤولًا عن أفعاله، ولذلك كان قادرًا على الطاعة كما هو قادر على المعصية، وقادرًا على الإحسان كما هو قادر على الظلم. قال تعالى:

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:10]،

أي بينا له طريق الخير وطريق الشر، وقال سبحانه:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:3].

فوجود الاختيار هو الذي يجعل للطاعة قيمتها، وللمسؤولية معناها، وللجزاء حكمته.

ومن طبيعة الإنسان أيضًا أنه يخطئ ويقصر، فلا يسلم من الزلل أحد. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

{كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون} رواه الترمذي.

فالإسلام لا يبني تصوره على أن الإنسان معصوم من الخطأ، وإنما يربيه على المبادرة إلى التوبة، وتصحيح الخطأ، والرجوع إلى الحق كلما وقع في تقصير.

كما أن الإنسان يجمع بين جوانب القوة والضعف، قال تعالى:

﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:28]،

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:34]،

وقال عز وجل:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج:19].

وفي المقابل أثنى الله على من زكى نفسه بالإيمان والعمل الصالح، فقال:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس:9].

وهذا يدل على أن الإسلام يعترف بحقيقة النفس البشرية كما هي، ثم يوجهها نحو الكمال الممكن، لا الكمال المطلق.

ولهذا جاءت الشريعة بأحكام تعالج جوانب الضعف في الإنسان، فشرعت الصلاة لتقوية الصلة بالله، والزكاة لتطهير النفس من الشح، والصيام لتربية الإرادة، والحج لتعميق معاني الإيمان والوحدة، وشرعت التوبة والاستغفار لأن الإنسان لا ينفك عن الخطأ. فالتشريع الإسلامي مبني على معرفة دقيقة بطبيعة البشر، وليس على افتراض أنهم لا يخطئون.

ومن هنا فإن وقوع بعض المسلمين في الظلم، أو التقصير، أو المعصية، لا يدل على نقص الإسلام، وإنما يدل على أن الإنسان قد يبتعد عن هداية الإسلام، أو يقصر في تطبيقها. فالفرق كبير بين كمال المنهج، وبين كمال من ينتسبون إليه. وكما أن مخالفة المريض لتعليمات الطبيب لا تدل على خطأ الطب، فكذلك مخالفة الناس لتعاليم الإسلام لا تدل على نقص الشريعة.

ومن تأمل التاريخ وجد أن جميع المجتمعات، مهما بلغت من الرقي، لم تخلُ من الأخطاء والجرائم والمظالم؛ لأن ذلك راجع إلى طبيعة الإنسان، لا إلى النظام وحده. وإنما تمتاز النظم الصالحة بقدرتها على تقليل الشر، وتشجيع الخير، ومعالجة الخطأ، وإقامة العدل، والإصلاح كلما وقع الانحراف. وهذا هو ما يقدمه الإسلام.

ولهذا لا ينبغي أن يقاس الإسلام بأخطاء بعض المسلمين، ولا أن يتوقع منه أن يلغي حرية الإنسان أو يمنعه من الاختيار. فلو شاء الله أن يجعل الناس جميعًا على حال واحدة لفعل، لكنه سبحانه اقتضت حكمته أن يبتليهم، ويجعل لهم إرادة يختارون بها، ثم يحاسبهم على أعمالهم.

ومن أعظم ما يقدمه الإسلام أنه لا ييأس من الإنسان إذا أخطأ، بل يفتح له باب الإصلاح دائمًا، ويحضه على التوبة، ويغرس فيه الأمل، ويهيئ له الوسائل التي تعينه على تزكية نفسه والارتقاء بأخلاقه. ولهذا كان أثر الإسلام الحقيقي ليس في صناعة إنسان معصوم، وإنما في صناعة إنسان يعرف ربه، ويجاهد نفسه، ويقوم إذا عثر، ويعود إلى الحق إذا أخطأ.

خلاصة الفصل

خلق الله الإنسان ذا إرادة واختيار، يجمع بين جوانب القوة والضعف، وهو بطبيعته عرضة للخطأ والتقصير. ولذلك لم يأت الإسلام ليجعل الإنسان معصومًا، وإنما جاء ليهديه، ويزكيه، ويعينه على مقاومة أهوائه، ويفتح له باب التوبة والإصلاح كلما زل. ومن ثم فإن وجود الخطأ في حياة الناس لا يدل على نقص الإسلام، بل ينسجم مع طبيعة الإنسان التي خلقه الله عليها، ويبقى فضل الإسلام في أنه يرشد الإنسان إلى الطريق الذي يحقق له أعظم قدر من الصلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة.

الفصل الثاني

الابتلاء سنة إلهية في الحياة الدنيا

إذا كانت طبيعة الإنسان تقتضي وجود الخطأ والتقصير، فإن طبيعة الدنيا نفسها تقتضي وجود الابتلاء والامتحان. فالله سبحانه لم يخلق هذه الحياة لتكون دار نعيم كامل، ولا جعلها موطنًا يخلو من الآلام والمصاعب، وإنما جعلها دار عمل واختبار، يبتلي فيها عباده بالخير والشر، ثم يجازيهم على أعمالهم في الدار الآخرة.

وقد بين القرآن الكريم هذه الحقيقة في آيات كثيرة، فقال تعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:2].

فغاية الحياة الدنيا هي الابتلاء، لا حصول النعيم الكامل. وقال سبحانه:

﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:35]،

فكما يبتلى الإنسان بالمصائب، يبتلى أيضًا بالنعم؛ لينظر كيف يتصرف في الحالين.

وقال تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:155].

فهذه الآية تبين أن وقوع الشدائد ليس أمرًا خارجًا عن سنن الله في الدنيا، بل هو جزء من طبيعة الحياة التي يعيشها جميع الناس، مؤمنهم وكافرهم، وإن اختلفت الحكمة والغاية والجزاء.

ولذلك كان الأنبياء، وهم خير الخلق، أكثر الناس ابتلاءً. وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم:

أي الناس أشد بلاء؟ فقال: **{الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل}** رواه الترمذي.

ولو كانت الاستقامة على دين الله تقتضي حياة خالية من المشقة، لكان الأنبياء أولى الناس بذلك، ولكن الله اختار لهم طريق الابتلاء؛ ليكونوا قدوة في الصبر والثبات.

ومن هنا يعلم أن الإسلام لا يعد أتباعه بحياة خالية من الأمراض، أو الفقر، أو فقد الأحبة، أو الكوارث، وإنما يعدهم بما هو أعظم من ذلك، وهو أن يمنحهم الإيمان الذي يخفف عنهم وقع المصائب، ويبين لهم حكمتها، ويجعلها سببًا لتكفير الذنوب، ورفعة الدرجات، وزيادة الأجر إذا صبروا واحتسبوا.

كما يعلمهم الإسلام أن المصائب ليست دائمًا عقوبة، فقد تكون رحمة، أو تربية، أو امتحانًا، أو سببًا لخير لا يدركه الإنسان في حينه. قال تعالى:

﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة:216]

ولذلك لا يحكم المؤمن على الأحداث بمجرد ظاهرها، بل يوقن أن الله حكيم عليم، وأن ما يقدره لعباده يجري وفق علمه وحكمته.

ولا يعني الإيمان بالابتلاء الاستسلام للمشكلات أو ترك السعي في علاجها، بل أمر الإسلام بالأخذ بالأسباب، والتداوي، والعمل، والسعي في إزالة الظلم، ودفع الفقر، وإغاثة المحتاج، وإصلاح ما أمكن إصلاحه. فالابتلاء لا ينافي العمل، بل هو ميدان يظهر فيه صدق الإنسان، وحسن تعامله مع ما يواجهه من أحداث.

ومن تأمل حياة المسلمين الأوائل وجد أنهم تعرضوا لألوان من الابتلاء؛ من أذى، وهجرة، وجوع، وحروب، وفقد للأحبة، ومع ذلك لم يمنعهم ذلك من بناء أعظم حضارة عرفها تاريخهم. فقد كانوا يدركون أن وجود الابتلاء لا يعني غياب هداية الله، وإنما هو جزء من الطريق الذي اختاره الله لعباده.

ومن الخطأ أن يظن الإنسان أن وجود المصائب دليل على عدم جدوى الدين، أو أن صلاح المجتمع يقتضي اختفاء جميع صور المعاناة. فحتى مع تطبيق أعدل الشرائع، تبقى هناك أمراض، وكوارث طبيعية، وحوادث، واختبارات، لأن هذه كلها من سنن الدنيا التي لا تتبدل حتى تنتهي الحياة ويبدأ الجزاء الكامل.

ولهذا فإن الإسلام لا يعد الناس بدنيا كاملة، وإنما يعدهم بمنهج يعينهم على عيش هذه الدنيا بأفضل صورة ممكنة، ويمنحهم السكينة عند البلاء، والأمل عند الشدة، والصبر عند المصيبة، والشكر عند النعمة، حتى يلقوا ربهم وقد أدوا ما عليهم في دار الامتحان.

خلاصة الفصل

جعل الله الدنيا دار ابتلاء، لا دار نعيم كامل، ولذلك فإن وجود المصائب والشدائد من سنن الحياة التي تشمل الناس جميعًا. ولم يأت الإسلام لإلغاء هذه السنن، وإنما جاء ليهدي الإنسان إلى حسن التعامل معها، فيأخذ بالأسباب، ويصبر عند البلاء، ويشكر عند النعمة، ويوقن أن الجزاء الكامل إنما يكون في الآخرة. ومن ثم فإن استمرار الابتلاء لا يناقض ما يحققه الإسلام من الخير، بل ينسجم مع الحكمة التي خلق الله الدنيا من أجلها.

الفصل الثالث

المدينة المنورة في عهد النبي ﷺ: أعظم نموذج عملي

إذا أراد الإنسان أن يرى الإسلام مطبقًا في واقع الحياة، فلا يجد مثالًا أكمل من المجتمع الذي بناه رسول الله ﷺ في المدينة المنورة. فهذا هو النموذج الذي تشكل تحت رعاية الوحي، وقاده خير البشر ﷺ، وربى أفراده خير معلم، وشهد تنزيل القرآن، وتلقى الهداية مباشرة من رسول الله ﷺ. ولذلك أجمع المسلمون على أن ذلك المجتمع هو خير مجتمع عرفته البشرية، وأنه أقرب المجتمعات إلى تحقيق مقاصد الإسلام في واقع الناس، وقد وصفهم الله تعالى بقوله:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:110]،

وقال النبي ﷺ:

{خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم} متفق عليه.

لقد امتاز مجتمع المدينة بإيمان راسخ، حتى قدم كثير من أهله رضا الله على أموالهم وأوطانهم وأنفسهم. وكان أفراده يتنافسون في الطاعات، ويحرصون على الصدق، والأمانة، والوفاء، والإحسان، حتى صار الإيمان القوة المحركة لحياتهم كلها. ولم يكن الدين عندهم مجرد شعائر، بل كان منهجًا يحكم الأخلاق، والمعاملات، والأسرة، والقضاء، والسياسة، وسائر شؤون الحياة.

وكان العدل من أبرز سمات هذا المجتمع؛ فلا يفرق بين غني وفقير، ولا بين شريف وضعيف، ولا بين قريب وبعيد. وقد أعلن النبي ﷺ هذا المبدأ بقوله: **{لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها}**، فكان الجميع سواء أمام أحكام الشريعة، وتحفظ الحقوق بعيدًا عن المحاباة والتمييز.

كما قامت المدينة على التكافل والتراحم، فآخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وضرب المسلمون أروع الأمثلة في البذل والإيثار، حتى أثنى الله عليهم بقوله:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:9].

وأصبح المجتمع يشعر بأن أفراده جسد واحد، يتعاونون على البر، ويغيث بعضهم بعضًا، ويتحمل القوي مسؤولية الضعيف.

وكان العلم حاضرًا في حياة المدينة، إذ كان القرآن يتنزل، والنبي ﷺ يعلم الناس أمور دينهم ودنياهم، فانتشر الفقه، وحفظ الوحي، وتربت النفوس على طلب العلم والعمل به. كما كانت الأخلاق الفاضلة أساس التعامل بين الناس، من الصدق، والرحمة، والعفو، والتواضع، وحسن الجوار، وصلة الرحم، وبر الوالدين.

وامتاز هذا المجتمع أيضًا بسرعة استجابته للحق، فإذا نزل حكم من الله بادر الناس إلى امتثاله، وإذا أخطأ أحدهم لم يتكبر عن الرجوع إلى الصواب، بل كانت التوبة، والاعتراف بالخطأ، وإصلاحه، من الصفات الظاهرة في المجتمع. ولذلك كان الإسلام يصنع أناسًا يسارعون إلى تصحيح أخطائهم، بدل الإصرار عليها.

ومع كل هذه المزايا، ومع وجود النبي ﷺ بينهم، ونزول الوحي عليهم، لم تصبح المدينة جنة على الأرض، ولم تخلُ من جميع صور النقص والابتلاء. فقد وجد فيها الفقراء، وكان من الصحابة من لا يجد إلا القليل من الطعام، ووجد المرض، وتوفي رجال ونساء وأطفال، وذاق المسلمون مرارة فقد الأحبة.

كما وجد فيها المنافقون الذين سعوا إلى بث الفتن وإضعاف المجتمع، ووقعت بعض الجرائم الفردية، كالسرقة والزنا والقذف، فأنزل الله الأحكام التي تعالجها، وأقيم العدل على الجميع. ووقعت خلافات واجتهادات بين الصحابة في بعض المسائل، وكانت الحروب والشدائد جزءًا من حياتهم، فشهدوا بدرًا، وأحدًا، والخندق، وغيرها من المواطن التي ابتلوا فيها بالخوف، والجوع، وفقد الأحبة.

بل إن بيت النبي ﷺ نفسه لم يسلم من الابتلاء، كما وقع في حادثة الإفك، وابتلي رسول الله ﷺ بفقد أولاده، وبوفاة عدد من أحب أصحابه، وبما لقيه من أذى ومشقة في سبيل تبليغ الرسالة. ومع ذلك كله، لم يضعف المجتمع، ولم تنهزم قيمه، بل كان يعود بعد كل ابتلاء أقوى إيمانًا، وأكثر تماسكًا، وأسرع رجوعًا إلى الحق.

وهنا تظهر الحقيقة التي ينبغي أن يدركها كل منصف؛ وهي أن عظمة المجتمع النبوي لم تكن في خلوه من المشكلات، وإنما في طريقته في التعامل معها. فكلما وقع خطأ وجد له علاجًا، وكلما ظهر ظلم أقيم العدل، وكلما حدث نزاع رده الوحي

إلى الحق، وكلما أذنب أحد فتح له باب التوبة والإصلاح. فلم يكن مجتمعًا معصومًا من الخطأ، ولكنه كان مجتمعًا لا يرضى بالخطأ ولا يستسلم له.

ولهذا كان مجتمع المدينة المنورة في عهد النبي ﷺ هو أكمل نموذج للحياة البشرية يمكن أن يتحقق في الدنيا؛ لأنه جمع بين الإيمان العميق، والعدل، والرحمة، والعلم، والأخلاق، والتكافل، مع بقاء طبيعة الإنسان، وسنن الابتلاء التي جعلها الله في هذه الحياة. ولو كان من الممكن أن توجد مدينة تخلو من جميع الآلام والذنوب والابتلاءات، لكانت مدينة رسول الله ﷺ أولى بذلك، فلما لم يقع هذا، علم أن الكمال المطلق لم يرده الله للدنيا، وإنما ادخره لعباده في الآخرة.

ومن هنا فإن المقياس الصحيح لنجاح المجتمع ليس أن تنعدم فيه جميع الأخطاء، فهذا مخالف لطبيعة الإنسان، وإنما أن يكون الخير فيه غالبًا، والعدل قائمًا، والإصلاح حاضرًا، والحق مرجعًا، والناس أسرع إلى التوبة من الإصرار، وأسرع إلى الإصلاح من الإفساد. وهذا هو النموذج الذي قدمه الإسلام في المدينة المنورة، وهو النموذج الذي ينبغي أن تقاس عليه المجتمعات، وأن تسعى للاقتداء به بحسب استطاعتها.

خلاصة الفصل

كانت المدينة المنورة في عهد النبي ﷺ أكمل نموذج عملي لتطبيق الإسلام، إذ قامت على الإيمان، والعدل، والعلم، والأخلاق، والتكافل، وسرعة الاستجابة للحق، فبلغت من الصلاح ما لم يبلغه مجتمع آخر. ومع ذلك لم تخلُ من الفقر، والمرض، والابتلاءات، والمنافقين، وبعض الأخطاء البشرية. وهذا يبين أن الإسلام لا يعد بمجتمع معصوم من جميع المشكلات، وإنما يصنع أفضل مجتمع ممكن في ظل طبيعة الإنسان وسنن الله في الحياة الدنيا، حيث يغلب الخير، ويقام العدل، ويعالج الخطأ، وتفتح أبواب الإصلاح والتوبة.

الفصل الرابع

لماذا لم يجعل الله الدنيا جنة؟

بعد أن تبين أن الإنسان مفطور على النقص، وأن الابتلاء سنة إلهية، وأن خير مجتمع عرفته البشرية لم يخلُ من المشقة والابتلاء، يبقى سؤال مهم: لماذا لم يجعل الله الدنيا جنةً خالية من الشرور والآلام؟ ولماذا لم يخلق حياةً لا مرض فيها، ولا فقر، ولا ظلم، ولا موت؟

إن الجواب عن هذا السؤال يبدأ بمعرفة الحكمة التي خلق الله من أجلها الدنيا. فالقرآن الكريم يبين أن هذه الحياة ليست دار الجزاء، وإنما دار العمل والامتحان، قال تعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:2].

فلو كانت الدنيا دار نعيم كامل، لانتفت حقيقة الابتلاء، ولما ظهر الصادق من الكاذب، ولا الصابر من الجازع، ولا المحسن من المسيء.

ولذلك جعل الله الإنسان مختارًا، قادرًا على أن يؤمن أو يكفر، وأن يطيع أو يعصي، قال تعالى:

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:29].

وهذا الاختيار هو أساس التكليف، وبه يستحق الإنسان الثواب أو العقاب. أما لو أزيلت أسباب الابتلاء، وأصبح الناس لا يعرفون إلا الخير، لفقد الاختيار معناه، ولما بقي مجال للمسؤولية أو الجزاء.

كما أن كثيرًا من الفضائل الإنسانية لا تظهر إلا في عالم الابتلاء. فالصبر لا يكون إلا مع المشقة، والشجاعة لا تظهر إلا عند الخوف، والكرم لا يكون إلا مع الحاجة، والعفو لا يتحقق إلا عند القدرة على الانتقام، والعفة لا تظهر إلا إذا غاب الرقيب، فامتنع الإنسان عن الحرام مع قدرته عليه، والرحمة تتجلى في مواساة المبتلين، والإحسان يظهر في خدمة المحتاجين. ولو كانت الدنيا خالية من هذه الأحوال، لما ظهرت هذه الأخلاق العظيمة التي يرتقي بها الإنسان.

ومن حكمة الله أيضًا أن جعل الدنيا محدودة النعيم؛ حتى لا يتعلق القلب بها تعلقًا ينسى معه الدار الآخرة. فلو كانت الدنيا كاملة، لما اشتاق الناس إلى الجنة، ولضعف التطلع إلى لقاء الله، بينما جعل الله نعيم الآخرة هو النعيم الكامل الذي لا يعكره نقص ولا يكدِّره زوال، قال تعالى:

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:48]

ولهذا كانت الجنة هي الموضع الذي يتحقق فيه الكمال الحقيقي؛ فلا مرض فيها، ولا موت، ولا حزن، ولا ظلم، ولا فقر، ولا خوف، قال سبحانه:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾
[طه:118-119].

وقال تعالى:

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ [الواقعة:25].

وقال تعالى:

﴿لَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت:31].

وقال تعالى:

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف:71].

فهذه الصفات لم يجعلها الله للدنيا، وإنما ادخرها لدار الجزاء.

ولا يعني هذا أن الدنيا خالية من النعم، بل جعلها الله مليئة بألوان الخير والرزق والجمال والرحمة، لكنها نعم ممزوجة بالابتلاء، ليشكر الإنسان عند العطاء، ويصبر عند البلاء، ويسعى في إصلاح نفسه وعالمه، حتى يلقى ربه.

ومن الخطأ أن يطالب الإنسان الدنيا بما لم يرد الله أن يكون فيها. فكما لا يطلب من المدرسة أن تكون دار مكافأة دائمة، لأنها موضع تعلم واختبار، فكذلك الدنيا هي ميدان العمل والاستعداد، أما الجزاء الكامل فمحله الآخرة. ولهذا كان المؤمن يجمع بين السعي لإصلاح الدنيا، وعدم انتظار الكمال المطلق فيها.

ومن هنا يتبين أن وجود النقص في الدنيا ليس دليلًا على نقص الإسلام، ولا على غياب رحمة الله، بل هو جزء من الحكمة التي قامت عليها هذه الحياة. فجاء الإسلام ليعين الإنسان على أن يعيش هذا الابتلاء بأفضل صورة، ويهديه إلى الطريق الذي يوصله إلى الحياة الكاملة التي وعد الله بها عباده المؤمنين.

خلاصة الفصل

لم يجعل الله الدنيا جنة؛ لأنها دار ابتلاء وعمل، لا دار جزاء واستقرار. فوجود المشقة، والاختيار، والنقص، من مقتضيات الحكمة التي خلق الله عليها هذه الحياة، وتظهر من خلالها معاني الإيمان والصبر وسائر الفضائل. أما الكمال المطلق، والنعيم الذي لا يشوبه نقص، فقد ادخره الله لعباده في الجنة. ومن ثم فإن الإسلام لا يعد الناس بدنيا كاملة، وإنما يهديهم إلى الطريق الذي يحقق لهم أفضل حياة ممكنة في الدنيا، وأكمل حياة في الآخرة.

الفصل الخامس

الإسلام يصنع أفضل مجتمع ممكن لا مجتمعًا معصومًا

بعد استعراض طبيعة الإنسان، وسنة الابتلاء، والنموذج العملي الذي مثله مجتمع المدينة المنورة، يتبين أن الإسلام لم يأت ليغير سنن الله في الكون، ولا ليجعل البشر ملائكة، وإنما جاء ليهديهم إلى الطريق الذي يحقق لهم أعظم قدر من الخير والصلاح في حدود ما تقتضيه طبيعة الحياة الدنيا.

فالإسلام لا يَعِدُ بزوال جميع صور الشر، ولا بانتهاء الفقر والمرض والموت، ولا باختفاء كل ظلم أو معصية؛ لأن هذه الأمور يرتبط كثير منها بطبيعة الإنسان، وبالسنن التي أجراها الله في هذا العالم. ولكنه يعد بشيء لا يقل أهمية، وهو أن يقلل أسباب الشر، ويكثر أسباب الخير، ويقيم ميزان العدل، ويضع من الأحكام والقيم ما يحفظ مصالح الناس، ويمنع كثيرًا من أسباب الفساد.

ولهذا فإن نجاح الإسلام لا يقاس بوجود أفراد لا يخطئون، وإنما يقاس بالأثر الذي يحدثه في حياة الناس إذا التزموا به. فهو يربي الضمير، ويقوي الوازع الديني، ويغرس مراقبة الله، ويحث على مكارم الأخلاق، ويقيم الأسرة على المودة والرحمة، ويشيع التكافل بين أفراد المجتمع، ويصون الحقوق، ويقيم العدل، ويضع العقوبات الرادعة، ويفتح أبواب التوبة والإصلاح. وكل ذلك يؤدي إلى مجتمع يقل فيه الظلم، وتكثر فيه الرحمة، ويغلب فيه الخير على الشر.

ومن هنا كان الإسلام يعالج الخطأ على مستويين: فيمنع وقوعه ما أمكن بالتربية والإيمان، ثم يعالجه إذا وقع بالقضاء، والحدود، والتعزيرات، ورد الحقوق، والتوبة، والإصلاح. فهو لا يكتفي ببيان المبادئ، ولا يعتمد على العقوبة وحدها، بل يجمع بين بناء الإنسان، وحماية المجتمع، ومعالجة الانحراف إذا وقع.

ولهذا السبب شهد التاريخ الإسلامي، في فترات التزامه القوي بأحكام الإسلام، قيام مجتمعات عرفت قدرًا كبيرًا من الأمن، والعدل، والاستقرار، وانتشار العلم، والتكافل، وحفظ الحقوق، مع بقاء ما لا تنفك عنه الحياة البشرية من نقص وتقصير.

فلم يكن ذلك الكمال المطلق، ولكنه كان أفضل بكثير من أحوال المجتمعات التي غابت عنها هذه المبادئ أو ضعفت فيها.

ومن الخطأ أن يُحاكم الإسلام إلى تصرفات من يخالف تعاليمه، أو إلى مراحل ضعف المسلمين، كما أنه من الخطأ أن يُتوقع من أي مجتمع أن يبلغ درجة لا يقع فيها خطأ ولا معصية. فكل مجتمع بشري سيبقى معرضًا للتقصير، وإنما يكون التفاضل بين المجتمعات بقدر ما يسود فيها العدل، ويغلب فيها الخير، وتقل فيها أسباب الفساد، وتوجد فيها القدرة على إصلاح الأخطاء عند وقوعها.

ولهذا فإن المجتمع الذي يطبّق الإسلام بإخلاص ليس مجتمعًا معصومًا، وإنما هو مجتمع حي، قد يقع فيه الخطأ، لكنه لا يقره، وقد يقع فيه الظلم، لكنه يسعى إلى رفعه، وقد تظهر فيه المعصية، لكنه يفتح أبواب التوبة والإصلاح، ولا يجعل الانحراف أمرًا طبيعيًا أو مقبولًا. وهذه هي السمة التي ميزت المجتمع النبوي، والتي ينبغي أن تسعى إليها المجتمعات الإسلامية في كل زمان.

ومن تأمل مقاصد الشريعة وجد أنها تهدف إلى تحقيق أعظم المصالح الممكنة، وتقليل المفاسد إلى أدنى حد ممكن، لا إلى إلغاء جميع صور النقص التي اقتضتها طبيعة الدنيا. ولذلك فإن وجود بعض المشكلات لا ينقض صلاح الشريعة، كما أن وجود بعض الأمراض لا ينقض قيمة الطب، وإنما يدل على أن الوسائل تعمل ضمن السنن التي جعلها الله لهذا العالم.

وهكذا فإن الإسلام يقدم للبشرية أفضل منهج لإقامة الحياة؛ لأنه يجمع بين الهداية الربانية، والفطرة السليمة، والعقل الراجح، وتحقيق المصالح الدنيوية والأخروية، فلا يصادم الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ولا يعارض العقل الصريح، ولا يهمل مصالح الإنسان في دنياه أو آخرته. كما أنه لا يبني أحكامه على أوهام المدينة الفاضلة التي لا وجود لها، ولا يستسلم للشر باعتباره أمرًا لا علاج له، بل يسعى إلى تزكية الإنسان، وإصلاح المجتمع، وتحقيق أكبر قدر من العدل والرحمة والخير. ولهذا قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة:130]؛

أي إن الإعراض عن دين الله ليس خروجًا عن الوحي فحسب، بل هو أيضًا مخالفة للفطرة السليمة، ومجانبة للعقل الرشيد، وتفويتٌ لما فيه خير الإنسان في دنياه وآخرته.

خلاصة الفصل

لا يعد الإسلام بمجتمع معصوم من الخطأ، ولا بدنيا تخلو من جميع صور النقص، وإنما يقدم المنهج الذي يحقق أفضل مجتمع يمكن أن يعيشه البشر في ظل طبيعتهم وسنن الله في الحياة. فهو يزكي الإنسان، ويقيم العدل، ويحفظ الحقوق، ويعالج الانحراف، ويكثر الخير، ويقلل الشر، ويقود الناس إلى أعظم قدر ممكن من الصلاح في الدنيا، مع توجيههم إلى الكمال الحقيقي الذي أعده الله لعباده في الآخرة.

خاتمة الباب السابع

بعد أن استعرض هذا الباب طبيعة الإنسان، وسنة الابتلاء، والنموذج العملي الذي مثله مجتمع المدينة المنورة، والحكمة من عدم جعل الدنيا جنة، تبين أن الكمال المطلق ليس من خصائص هذه الحياة، وإنما هو من نعيم الآخرة الذي أعده الله لعباده المؤمنين.

ولذلك فإن من الخطأ أن يُقاس الإسلام بمعيار لا يدعيه لنفسه، أو أن يُطلب منه ما لم يجعله الله للدنيا أصلًا. فالإسلام لم يأت ليبدل طبيعة الإنسان، ولا ليعطل سنن الله في الكون، وإنما جاء ليهدي الإنسان، ويزكي نفسه، ويصلح حياته، ويقيم المجتمع على العدل والرحمة، ويحقق أعظم قدر ممكن من الخير في عالم يقوم على الابتلاء والاختيار.

وقد كان المجتمع الذي أقامه رسول الله ﷺ في المدينة المنورة أعظم شاهد على ذلك؛ فقد بلغ من الإيمان، والعدل، والرحمة، والأخلاق، والتكافل، وحفظ الحقوق، ما لم يبلغه مجتمع آخر، ومع ذلك بقيت فيه طبيعة الإنسان وسنن الابتلاء التي لا تنفك عنها الحياة الدنيا.

ولم تقتصر آثار الإسلام على عصر النبوة، بل شهد تاريخ المسلمين نماذج مشرقة اقتربت من هذا النموذج العظيم بقدر تمسكها بهدي الإسلام. ففي خلافة أبي بكر رضي الله عنه حُفظت وحدة الأمة وثبتت أركان الدولة الناشئة، وفي خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ظهر من العدل، والأمن، وصيانة الحقوق، وحسن الإدارة، ما جعله مضرب المثل عبر القرون. ثم جاء عهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله، فكان من أزهى عصور الإصلاح، إذ أعاد كثيرًا من معالم العدل، ورد المظالم، ونشر العلم، واعتنى بأحوال الرعية، حتى صار مثالًا يُحتذى في الحكم الراشد، مع أن مدة خلافته كانت قصيرة، ولم تخلُ هي الأخرى من التحديات والابتلاءات. ثم جاء عصر هارون الرشيد، فشهد جانبًا من قوة الدولة الإسلامية واتساع سلطانها وازدهار العلم ورعاية العلماء، مع بقاء ما لا تنفك عنه الحياة البشرية من ابتلاءات وتحديات.

وتدل هذه النماذج التاريخية على أن المجتمعات كلما اقتربت من هدي الإسلام الصحيح، ازدادت عدلًا، وأمنًا، ورحمة، واستقامة، وكلما ابتعدت عنه كثرت فيها أسباب الظلم والفساد. غير أن أحدًا منها لم يبلغ الكمال المطلق؛ لأن ذلك ليس من طبيعة الدنيا، وإنما من خصائص الجنة التي وعد الله بها عباده المؤمنين.

وهكذا يتبين أن الإسلام لا يعد الناس بمدينة فاضلة متخيلة، وإنما يقدم لهم المنهج الذي يحقق أفضل حياة يمكن أن يعيشها البشر في ظل طبيعتهم وسنن الله في الكون. فإذا صدق الناس في الإيمان، وحسنوا التطبيق، ظهرت آثار الإسلام في الأفراد والمجتمعات، بقدر التزامهم به، كما شهد بذلك التاريخ قديمًا وحديثًا.

وبهذا تكتمل الصورة التي سعى هذا الكتاب إلى بيانها؛ فالإسلام هو أعظم نعمة أنعم الله بها على البشرية، ومنافعه تمتد إلى الفرد، والأسرة، والمجتمع، والإنسانية، وسائر المخلوقات. غير أن هذه المنافع تتحقق في إطار حكمة الله وسننه في الدنيا، أما الكمال الذي لا نقص فيه، والنعيم الذي لا يشوبه حزن، والعدل الذي لا يعتريه خلل، فإنما ينتظر المؤمنين في دار الآخرة، حيث تتم النعمة، ويكتمل الجزاء، ويظهر فضل الله على عباده أتم ظهور.

خاتمة الكتاب

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

بعد هذه الرحلة في بيان منافع الإسلام، يتبين أن هذا الدين ليس مجرد مجموعة من الشعائر أو الأحكام المتفرقة، وإنما هو منهج رباني متكامل، أنزله الله لهداية الإنسان، وتحقيق مصالحه في دنياه وأخراه، وإخراجه من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الإيمان والهدى.

وقد رأينا كيف أن أعظم ما يمنحه الإسلام للإنسان هو معرفة ربه، والإيمان به، وتوحيده، وهي النعمة التي تنبثق منها سائر النعم. ثم رأينا كيف يزكي الإسلام القلب، وينير العقل، ويهذب النفس، ويحفظ الجسد، ويرشد الإنسان في تفاصيل حياته اليومية. ثم انتقلنا إلى العبادات، فوجدنا أنها كلها تعود بالنفع على العبد، فتقوي إيمانه، وتطهر قلبه، وتقوم سلوكه، وتربي إرادته، وتصلحه في نفسه وعلاقته بربه وبالناس.

ثم تبين لنا أن آثار الإسلام لا تقف عند حدود الفرد، بل تمتد إلى الأسرة، فتقيمها على الإيمان، والمودة، والرحمة، والعدل، وحسن التربية. وتمتد إلى المجتمع، فتنشر الأمن، وتقيم العدل، وتحفظ الحقوق، وتقوي الأخلاق، وتحقق التكافل، وتنظم القضاء، وتدعو إلى الإصلاح. ثم تتجاوز ذلك إلى الإنسانية كلها، فتقرر كرامة الإنسان، وتصون الحقوق، وتدعو إلى العدل بين الأمم، وتحارب الظلم والعنصرية، وتدعو إلى السلم ما أمكن، وتحكم الحرب بضوابط العدل والرحمة.

ولم يقتصر خير الإسلام على الإنسان وحده، بل شمل الحيوان، والبيئة، والأرض، والموارد الطبيعية، فدعا إلى الرحمة، والإصلاح، وعمارة الأرض، والمحافظة على نعم الله، حتى يظهر للمتأمل أن رسالة الإسلام رسالة رحمة للعالمين بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى.

ثم جاء الباب الأخير ليبين حقيقة يغفل عنها كثير من الناس، وهي أن هذه المنافع العظيمة لا تعني أن الدنيا ستصبح خالية من كل نقص أو ابتلاء. فالله سبحانه لم يخلق الدنيا دار جزاء، وإنما جعلها دار عمل وامتحان، وجعل الإنسان مخلوقًا يخطئ

ويصيب، وأجرى في الحياة سننًا لا تتبدل حتى يرث الله الأرض ومن عليها. ولهذا فإن الإسلام لا يزيل طبيعة الدنيا، ولكنه يهدي الإنسان إلى أفضل طريق يسلكه فيها، ويصنع أفضل مجتمع يمكن أن يتحقق في ظل هذه السنن، كما شهد بذلك المجتمع النبوي، ثم النماذج المشرقة التي سارت على هديه عبر التاريخ.

ومن هنا فإن الإنصاف يقتضي أن يُعرف الإسلام من أصوله، ومن كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، ومن تطبيقاته المشرقة، لا من أخطاء بعض المنتسبين إليه، كما أن صلاح المنهج لا يقاس بتقصير من خالفه، وإنما يقاس بما يحدثه من إصلاح حين يعمل الناس به حق العمل.

ومن أهم ما انتهى إليه هذا الكتاب أن الله سبحانه وتعالى غني عن خلقه جميعًا، لا تنفعه طاعة المطيعين، ولا تضره معصية العاصين، وإنما شرع هذا الدين رحمة بعباده، وهداية لهم، وتحقيقًا لمصالحهم في الدنيا والآخرة. فكل أمرٍ أمرَ الله به فيه خير للإنسان، وكل نهي نهى عنه فيه دفع لشر أو مفسدة، وما شرع سبحانه شيئًا إلا لحكمة ورحمة وعدل، علمها من علمها، وجهلها من جهلها.

وإذا كان هذا الكتاب قد اقتصر على بيان جانب من منافع الإسلام، فإن فضل الله في هذا الدين أعظم من أن يحيط به كتاب، أو تستوعبه صفحات معدودة. قال تعالى:

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:34]،

وإن من أعظم نعمه على عباده أن هداهم إلى الإسلام، وأرسل إليهم خير رسله، وأنزل عليهم خير كتبه.

وختامًا، فإن الغاية من هذا الكتاب ليست مجرد تعداد الفضائل، ولا الاقتصار على إقامة الحجة العقلية، وإنما دعوة كل قارئ إلى أن يعيش هذا الدين، ويتعرف إليه من مصادره الصحيحة، ويتأمل هدايته بعقل منصف وقلب مفتوح. فكلما ازداد الإنسان معرفة بالإسلام، ازداد يقينًا بأنه رحمة من الله للعالمين، وأن ما جاء به من الهداية والعدل والخير لا نظير له في أي منهج بشري.

ونسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به كاتبه وقارئه، وأن يجعله سببًا في زيادة الإيمان، وتصحيح المفاهيم، وإظهار محاسن هذا الدين، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

مراجع وكتب مقترحة

للاستزادة في موضوع هذا الكتاب، يمكن الرجوع إلى عدد من المؤلفات التي تناولت مقاصد الشريعة، وحِكَم التشريع، وخصائص الإسلام، ومنها:

- **قواعد الأحكام في مصالح الأنام – العز بن عبد السلام (ت 660هـ) .**
- **الموافقات** (مباحث مقاصد الشريعة). **– أبو إسحاق الشاطبي (ت 790هـ) .**
- **حِكَم التشريع وفلسفته – علي أحمد الجرجاوي (ت نحو 1345هـ) .**
- **مقاصد الشريعة الإسلامية – محمد الطاهر بن عاشور (ت 1393هـ) .**
- **مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها – علال الفاسي (ت 1394هـ) .**
- **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين – أبو الحسن الندوي (ت 1420هـ) .**
- **هذا هو الإسلام – محسن عبد الحميد (ت 1443هـ) .**
- **الخصائص العامة للإسلام – يوسف القرضاوي (ت 1444هـ) .**

الفهرس

هذا الكتاب

هل شرع الله الإسلام لأنه يحتاج إلى عبادة الناس؟ أم لأن الناس هم المحتاجون إلى الإسلام؟

ما الذي يستفيده الإنسان من الإسلام؟ وما الذي يخسره إذا أعرض عنه وكفر به؟

يقول الله تعالى:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة:130].

ينطلق هذا الكتاب من هذه الحقيقة القرآنية؛ ليبين أن الله سبحانه غني عن العالمين، وأن الإسلام لم يُشرع لحاجة الله إلى عباده، وإنما شُرع رحمةً بهم، وهدايةً لهم، وتحقيقًا لمصالحهم في دنياهم وآخرتهم.

ويستعرض الكتاب آثار الإسلام في حياة الفرد، والعبادات، والأسرة، والمجتمع، والإنسانية، وسائر المخلوقات، كما يجيب عن سؤال مهم: لماذا لا يتحقق الكمال في الدنيا مع كمال هذا الدين؟

إنها رحلة في اكتشاف محاسن الإسلام، وبيان أن كل ما شرعه الله يعود نفعه إلى الإنسان نفسه، وأن أعظم الخاسرين ليس من فاته شيء من الدنيا، وإنما من حرم نفسه هداية الإسلام.

ماذا يستفيد الناس من الإسلام؟



هذا الكتاب

هل شرع الله الإسلام لأنه يحتاج إلى عبادة الناس؟
أم لأن الناس هم المحتاجون إلى الإسلام؟
ما الذي يستفيده الإنسان من الإسلام؟
وما الذي يخسره إذا أعرض عنه وكفر به؟
يقول الله تعالى:
﴿وَمَن يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾
[البقرة: ١٣٠]
ينطلق هذا الكتاب من هذه الحقيقة القرآنية:
ليبين أن الله سبحانه غني عن العالمين،
وأن الإسلام لم يُشرع لحاجة الله إلى عباده،
وإنما شُرع رحمة بهم، وهداية لهم، وتحقيقا لمصالحهم في دنياهم وآخرتهم.
ويستعرض الكتاب آثار الإسلام في حياة الفرد، والعبادات، والأسرة، والمجتمع، والإنسانية، وسائر المخلوقات،
كما يجيب عن سؤال مهم:
لماذا لا يتحقق الكمال في الدنيا مع كمال هذا الدين؟
إنها رحلة في اكتشاف محاسن الإسلام،
وبيان أن كل ما شرعه الله يعود نفعه إلى الإنسان نفسه،
وأن أعظم الخاسرين ليس من فاته شيء من الدنيا،
وإنما من حرم نفسه هداية الإسلام.

تأليف محمود الحنيني